طرق القصر والمقام

د/ محمد الأمير محمد

مقـــدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وبعـــــد ...

فمبحث القصر ــ كأى مبحث بلاغى ــ نال اهتمـام البـلاغيين وجهدهم ، فبحثوا تقسـيماته المتنوعة ، وطرقه المختلفـة ، ونوهوا ببلاغته ، وأثره فى الصورة الأدبية .

ولم يتناول أحد من البلاغيين قبل عبد القاهر هذا الأسـلوب ، ربما نجد شـذرات يسيرة منه لدى بعض اللغويين تتعلق بدلالة « ما والا » فى جملة واحدة ، أو توضيح « انما » فى الكلام ، لكن المعالجة الموسـعة ، والنـابعة من منطلق فكرى مميز هى التى نجـدها عنـد عبد القاهر ، فدراسته لدلالة النفى والاستثناء فى الأسلوب ، ودلالة « انما » وما قد يكون بينهما من تشابه واختلاف دراسة فريدة ، وكل ذلك كان فى اطار نظريته العامة فى النظم التى جاءت تطبيقاتها دراسة تفصيلية لخصائص التعبير فى العربية ، ودلالاتها فى شتى المواقع .

ولعبد القاهر فيض فى النفى والاستثناء و « انما » مسترشدا بذوقه وفهمه للكلام العربى ، فذكر مقامتهما مبرزا جمالهما فى هذه المقامات ، كما أبان — بافاضة — التقديم الذى يفيد القصر بحس لغوى فائق •

وذكر البلاغيون من بعده طرق القصر المختلفة متأثرين بعبدالقاهر فيما بحثه ، شارحين ما كتبه السكاكى والخطيب القزوينى مضيفين ، أو معترضين ، أو محررين •

وقد قصدت الى طرق القصر موضحا ومطبقا ذاكرا مقاماتها المختلفة التى اذا واقعتها كشفت عن المعنى المراد ، وقد خلعت عليه حلة الجمال •

ولا أقول : انى أبدعت ، أو أضفت ، ولكنها الرغبة فى متابعة الجهد ، ومداومة الدرس لفهم تراثنا الذى هو ينبوع معرفتنا ، ومادة بحوثنا ، ثم عرضه بصورة أسلوبية تقرب فهمه ، وتيسر ادراكه •

وطبيعة البحث اقتضت أن آتى بتمهيد يوجز ماهية القصر ، وتقسيماته ، ثم عرضت طرق القصر مبينا ما لم يعتمده البلاغيون منها وما اعتمدوه ، ذاكرا مقامات كل طريق مع أمثلة تطبيقية متنوعة •

ونسأل الله التوفيق

تمهيـــد :

القصر فى اللغـــة يأتى بمعنى التخصيص ، يقـــال : قصر فلان الشىء على كذا اذا خصصه به ، ولم يجاوزه الى غيره(١) ، ويقال : قصر فلان غلة بستانه على عياله ، اذا جعلها خاصة لهم ، وقصر الشىء على نفسه اذا خص نفسه به ، فلم يجعل لغيره منه شيئا .

ويأتى القصر أيضا بمعنى الحبس(٢) ، ومنه قوله تعالى : «حور مقصورات فى الخيام »(٣) أى محبوسات فيها ، والحبس هنا ليس للتعذيب والاهانة ، وانما للتكريم والصيانة .

والقصر فى الاصـــطلاح البلاغى : هو تخصـــيص شىء بشىء بطريق مخصوص(٤) ، أى تخصيص صـــفة بموصـــوف ، أو موصوف بصفة بطريق من الطرق التى تدل على الاختصاص .

والمراد بالصفة فى باب القصر الصفة المعنوية ، أى المعنى الذى يقصد المتكلم اثباته للغير أو نفيه عنه ، كاثبـــاته معنى الفعل لفاعله ، ومعنى الخبر لمبتدئه . أما الصفة النحوية فلا تعد من الصفات المعنوية المعتبرة في باب القصر ، ويمتنع دخول أداة القصر عليها .

---

(١) لسان العرب جـ ٥ ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٣) الرحمن ٧٢ .

(٤) انظر شروح التلخيص ص ١٦٦ .

والصفة المعنوية اذا دل عليها بلفظ الفعل أو المصدر أو المشتق كانت صريحة لدلالتها الواضحة على الحدث الصالح لأن توصف به الذات ، وان دل عليها بالاسم الجامد فهي مؤولة ، لأنها لا تصلح للوصفية الا بتأويل ترجع به الى معنى المشتق ، فاذا قلت : ما هذا الخاتم الا ذهب ، احتجت الى تأويل لفظ (ذهب) بمصنوع من الذهب

والمراد بالموصوف الشيء الذى يقصد المتكلم اثبات الصفة له أو نفيها عنه •

والعبرة فى التفرقة بين الموصوف والصفة فى باب القصر مقرونة بما يلاحظ المتكلم جعله منسوبا ، وما يلاحظ جعله منسوبا اليه بقطع النظر عن الدلالة الأصلية للفظ ، فما اعتبره منسوبا فهو الصفة، وما اعتبره منسوبا اليه فهو الموصوف •

أقسامه :

ينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع قسمين :

الأول : قصر حقيقى : وهو يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع بأن لا يتعداه الى غيره أصلا كقوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو »(٥) •

فى الآية قصران حقيقيان ، الأول التقديم فى قوله : « وعنده

---

(٥) الأنعام ٥٩ •

مفاتح الغيب » فقد تقدم فيه المسند فأفاد أن مفاتح الغيب عنده ، وليست عند غيره ، وكأنه لما قدم « عنده » أشار الى أن المراد عنده وحده ، لا يشاركه فيها غيره ، وقد فهم ذلك بمعونة السياق ، والقصر الثانى قوله « لا يعلمها الا هو » فقد أثبت علمها لله سبحانه ، ونفاه عن كل ما عداه .

والثانى : قصر اضافى : وهو أن يختص المقصور بحسب الاضافة الى شىء معين ، كقوله تعالى : « وما أضلنا الا المجرمون »(٦) قصرت صفة الاضلال على المجرمين من البشر ، فلا تتعداهم الى معين هو (الشيطان) مثلا .

وينقسم الاضافى(٧) باعتبار حال المخاطب ثلاثة أقسام :

(أ) قصر افراد : اذا اعتقد المخاطب الشركة بين شيئين فأكثر نحو قوله تعالى : « انما الله اله واحد»(٨) خوطب به من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة ، بدليل قوله قبلها : « ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم»

---

(٦) الشعراء ٩٩ .

(٧) أى دون الحقيقى بنوعيه : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف لأن العاقل لا يعتقد اتصاف أمر بجميع الصفات ولا اتصافه بجميعها الا واحدة ، أو يتردد فى هذا . كذلك لا يعتقد اشتراك صفة فى جميع الأمور ، ولا اشتركها فى جميع الأمور الا واحدا ، أو يتردد فى هذا . وانظر هذا التقسيم وتعريفات الأقسام فى شروح التلخيص ـ مختصر سعد الدين على تلخيص المفتاح جـ ٢ ص ١٧٨ ومابعدها .

(٨) النساء ١٧٠ .

وقد عرفه البلاغيون بأنه تخصيص شيء بشيء دون شيء آخر معين قصدا لرد خطأ المخاطب في اعتقاده الشركة .

(ب) قصر قلب : اذا كان المخاطب يعتقد عكس الحكم ، فتقلب عليه اعتقاده نحو : ما شاعر الا شوقي ردا على من زعم ان غيره أشعر منه .

وقد عرفه البلاغيون بأنه تخصيص شيء بشيء مكان شيء آخر معين قصدا لرد خطأ المخاطب في حكمه بعكس ما حكمت به .

(ج) قصر تعيين اذا كان المخاطب مترددا في الحكم نحو : ما شاعر الا شوقي ردا على من تردد في اثبات الشعر له ولبعض الشعراء الآخرين .

وقد عرفه البلاغيون بأنه تخصيص شيء بشيء مكان شيء آخر معين قصدا لدفع تردد المخاطب في الحكم وازالة شكه .

وكل من الحقيقي والاضافي ينقسم باعتبار الغرض المقصود منه قسمين :

الأول : تحقيقي اذا كان الغرض منه تقرير الحقيقة مجردة عن الادعاء والمبالغة .

الثاني : قصر ادعائي اذا كان الغرض منه المبالغة ، وعدم الاعتداد بغير الصفة ، أو بغير الموصوف المقصور عليهما .

وكل مما تقدم ينقسم باعتبار الطرفين ــ المقصور والمقصور عليه ــ قسمين :

(أ) قصر صفة على موصوف ، وهو ما خصت فيه الصفة بموصوف ، ونفيت عن غيره ، لكن يجوز أن يكون لذلك الموصوف صفات أخر .

(ب) قصر الموصوف على صفة : وهو ما خص فيه الموصوف بصفة ، ونفى عنه غيرها ، لكن يجوز أن تكون تلك الصفة لموصوف آخر

ويتحصل عقلا من هذه التقسيمات ستة عشر قسما يمكن توضيحها بالشكل الآتى :

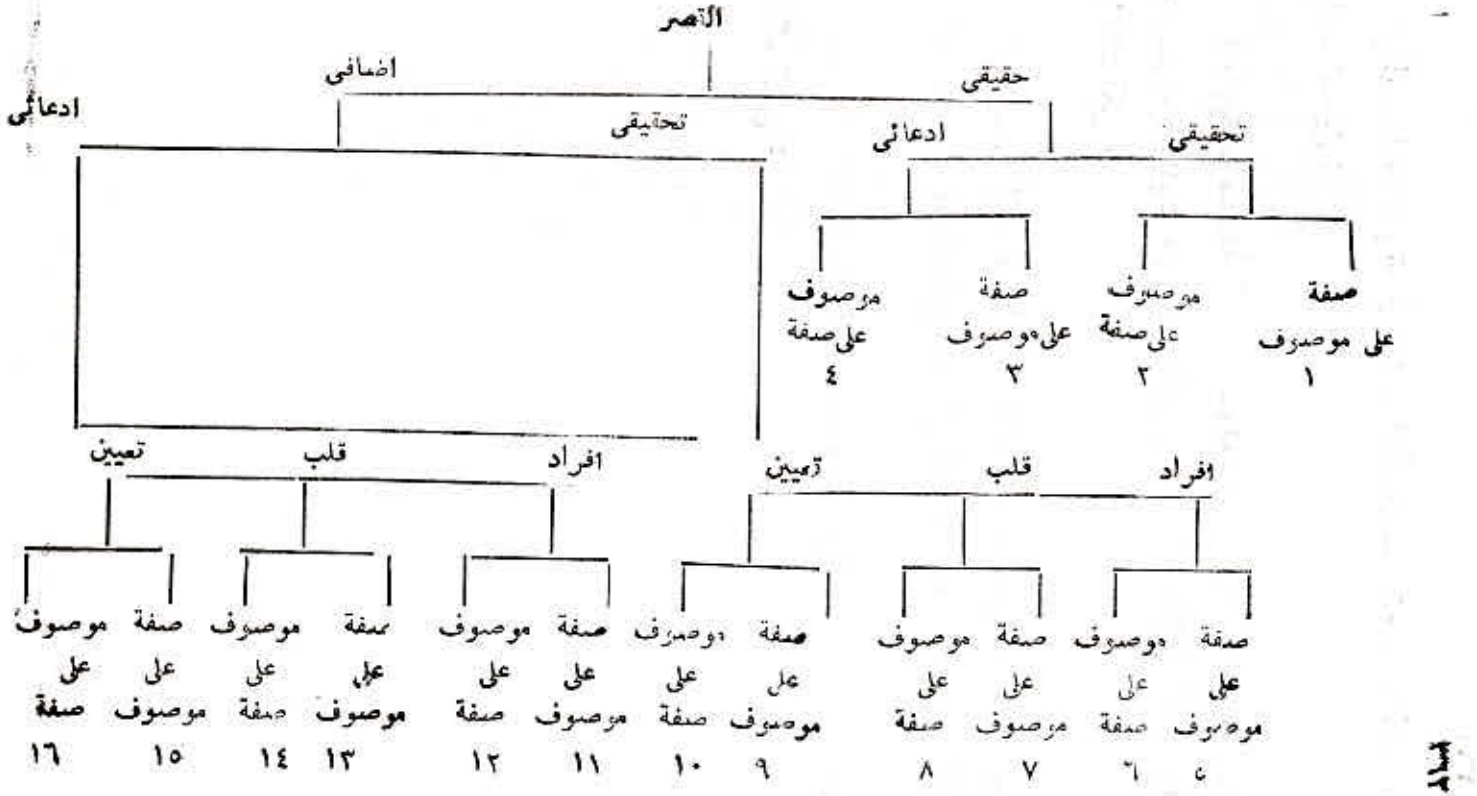
القصر
حقيقي
اضافي
تحقيقي
ادعائي
ادعائي
تحقيقي
صفة على موصوف ١
موصوف على صفة ٢
صفة على موصوف ٣
موصوف على صفة ٤
افراد
قلب
تعيين
افراد
قلب
تعيين
صفة على موصوف ٥
موصوف على صفة ٦
صفة على موصوف ٧
موصوف على صفة ٨
صفة على موصوف ٩
موصوف على صفة ١٠
صفة على موصوف ١١
موصوف على صفة ١٢
صفة على موصوف ١٣
موصوف على صفة ١٤
صفة على موصوف ١٥
موصوف على صفة ١٦

وحين نخرج من التصور العقلى الى الاستعمال الأدبى نرى :

(أ) أن بعض هذه الأقسام لا يكاد يوجد ، وهو قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا « لتعذر الاحاطة بصفات الشيء •• بل نقول : ان هـذا النوع من القصر مفض الى المحال ، لأن للصـفة المنفية نقيضـا البتـة •• فاذا نفيت جميع الصـفات لزم ارتفـاع النقيضين »(٩) ويقول المغربى : « وانما تعذرت الاحاطة بالأوصاف لمـا علم أن العاقل لا يحيط بأوصاف نفسه لاسيما الباطنية والاعتبارية فكيف بأوصاف غيره »(١٠) •

(ب) وأن بعضها فيه تكلف وهى :

١ ــ قصر الصفة على الموصوف قصرا اضافيا ادعائيا للقلب •

٢ ــ قصر الموصوف على الصفة قصرا اضافيا ادعائيا للقلب •

٣ ــ قصر الصفة على الموصوف قصرا اضافيا ادعائيا للتعيين •

٤ ــ قصر الموصوف على الصفة قصرا اضافيا ادعائيا للتعيين •

وأى أسلوب فيه تكلف يفقـد الشرط الجوهرى للفن المجيد وهو الصدق ، وبذلك تخرج عن دائرة الأساليب الأدبية التى تتناولها البلاغة •

(جـ) وأن بعضها قليل الوجود ، وهو :

١ ــ قصر الصفة على الموصوف قصرا اضافيا ادعائيا للافراد •

٢ ــ قصر الموصوف على الصفة قصرا اضافيا ادعائيا للافراد •

---

(٩) المطول ص ٢٦٥ •

(١٠) شرح ابن يعقوب المغربى ضمن شروح التلخيص ص ١٧٢ جـ ٣

لأنك فى هذين القسمين تخصص شيئا بشىء دون شىء آخر معين قصدا لرد خطأ المخاطب فى اعتقاده الشركة بين المقصور عليه ، وبين الشىء الآخر المعين ، وحين ترد خطأ الاعتقاد ينبغى أن تبنى الرد على التحقيق ، لا على الادعاء ، فان أردت المبالغة فخير لك أن تلجأ الى أسلوب القصر الحقيقى الادعائى ، لأن النفى فيه يتجه الى جميع ما عدا المقصور عليه ، لا الى بعض معين ، فالمبالغة فيه أتم منها فى القصر الاضافى الادعائى •

(د) وبعضها كثير الاستعمال فى الأساليب التقريرية التى تتناول الحقائق والقضايا العلمية والعقلية • وهو : قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا •

أما ما عدا ذلك من أساليب القصر التى تدنو اليها أبصار الأدباء ، وحولها تهفو أمانيهم ، ليستعينوا بها فى ابراز صورهم الأدبية مثيرة موحية معبرة فى قوة ووضوح عن المعنى الذى يسيطر على المقام • وهذه الأساليب هى :

١ — أسلوبا القصر الحقيقى الادعائى صفة على موصوف ، أو موصوفا على صفة •

٢ — وأساليب القصر الاضافى الحقيقى صفة على موصوف أو موصوفا على صفة •

وحين يستدعى المقام عناية خاصة بالموصوف — فى معرض مدحه أو ذمه ، أو تقرير حاله ، أو دفع الشبهة عنه — يكون قصر الصفة عليه

أبلغ من قصره عليها ، فقول الشاعر فى معبد :

محاسن أوصاف المغنين حمة وما قصبات السبق الا لمعبد

أبلغ مما لو قال : وما لمعبد الا قصبات السبق ، لأن المقصور عليه فى الأول (معبد) فهو يقول لمعبد وحده قصبات السبق ، ولا يشترك معه فى ذلك أحد ، ومن الجائز أن تكون لمعبد أوصاف حسنة أخرى .

أما فى الثانى فالمقصور عليه (قصبات السبق) فمعبد ليس له سواها من الصفات على أنه من الجائز أن يشترك معه فيها سواه .

فالبيت أبلغ فى مدح معبد من وجهين : الأول أنه يفيد أنه مستقل بقصبات السبق لا شريك له فيها ، والثانى : أنه لا ينفى أن له صفات أخرى حسنة غير قصبات السبق .

أما اذا استدعى المقام العناية بالصفة كما هو الحال فى معرض التهديد والوعيد فقصر الموصوف عليها آنئذ أبلغ من قصرها عليه . فالحجاج فى خطبته بالكوفة التى يقول فيها بعد أن أفاض فى تهديده ووعيده : « واعلموا أنى لا أقول الا وفيت ، ولا أهم الا أمضيت » كان فى قمة التوفيق البلاغى ، لأنه بقصره نفسه حين يقول على « الوفاء » وقصره نفسه حين يهم على « الامضاء » قد عنى بصفة « الوفاء » حتى لكأنه غير متصف بسواها ، وعنى بصفة « الامضاء » حتى لكأنه غير متصف بسواها ، لأن كلتا الصفتين تسيطر على مقام التهديد والوعيد .

وفى مقام الرد على المخاطب تجىء أساليب القصر الاضافى التحقيقى للافراد والقلب والتعيين حسبما تقتضيه حال المخاطب .

طرق القصر والمقام

يستفاد القصر بطرق كثيرة ، بعضها لم يهتم به البلاغيون ، ولم يعدوها من طرق القصر ، وبعضها اهتموا بها وبحثوها جيدا .

فمما لم يعتبروه قصرا . أن يكون بعبارة تدل عليه بمادتها اللغوية صراحة ، مثل قوله تعالى : « والله يختص برحمته من يشاء »(١١) ، وقولك : النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخصوص بخاتم النبيين .

أو أن يكون بدليل خارج عن النص ، كدليل عقلي ، أو حسي ، أو تجريبي ، أو دليل من القرائن الذهنية أو الحالية مثل : فلان رئيس قسم البلاغة ، ومثل : تبث الشمس ضياءها على الأرض فتمدها بالحرارة ، وقول الشاعر :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وقول الشاعر :

أرونى أمة بلغت مناها بغير العلم أو حد اليمانى

ولعل عدم اهتمام البلاغيين بهذا ومثله تفصيلا وتقسيما وشرحا أن حصر عناصرها يتعذر ، أو يعسر ، كما أنها لا تضفى على الأسلوب ايحاء كما هو فى الطرق المعتمدة .

---

(١١) البقرة ١٠٥ .

واهتم البلاغيون بتحديد وشرح وتقسيم وتفصيل الطرق الآتية: النفى واستثناء ، وانما : والعطف بالحروف (لا) و (بل) و (لكن) والتقديم ، لأن هذه الطرق ــ عندهم ــ هى التى يجىء بها أسلوب القصر على صورة تدل على الاثبات والنفى بجملة واحدة دلالة وضعية فى جميع أقسام القصر • ويعنون بدلالتها على الاثبات والنفى : اثبات الصفة للموصوف ، ونفى غيرها عنه فى قصر الموصوف على الصفة ، واثبات الصفة للموصوف ونفيها عن غيره فى قصر الصفة على الموصوف

واما أن تكون هذه الطرق بجملة واحدة فلكيلا يعد من طرق القصر نحو : جاء محمد ولم يجىء أحد غيره ، لأن الدلالة على الاثبات والنفى تحققت بجملتين لا بجملة واحدة •

وأما الدلالة الوضعية فانها تمنع التأكيد بلفظ (النفس) و (العين) ، وتمنع التصريح بلفظ « خصصته بكذا » و « قصرته » عليه من أن يكونا طريقى قصر ؛ لأنهما وان أفادا بصريح اللفظ اثباتا، لكنهما لا يدلان على النفى الا لزوما •

هذا ، وان هناك طريقين آخرين هما : ضمير الفصل ، وتعريف الخبر ، فقد ذكر البلاغيون أنهما يفيدان القصر • يقول الخطيب القزوينى فى ايضاحه : « وأما توسط الفصل بينه ــ يقصد المسند اليه ــ وبين المسند فلتخصيصه به ، كقولك : زيد هو المنطلق »(١٢) ويقول سعد الدين فى شرحه للتلخيص : « وأما فصله ، أى تعقيب المسند اليه

---

(١٢) الايضاح جـ ٢ ص ٤٩ ، ٥٠ تعليق د/ خفاجى •

بضمير الفصل ... (فلتخصيصه) أى المسند اليه (بالمسند) يعنى قصر المسند على المسند اليه ، لأن معنى قولنا : زيد هو القائم أن القيام مقصور على زيد لا يتجاوزه الى عمرو »(١٣) ويقول السبكى : « وفائدته ـ يعنى ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ـ ... افادة اختصاص المسند اليه بالمسند ، فاذا قلت : زيد هو القائم معناه أنه لا قائم غيره . وقد صرح به الزمخشرى عند قوله « وأولئك هم المفلحون » ... وقد توجد دلالة الفصل على الحصر فى مواضع من القرآن ، منها قوله تعالى : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم »(١٤) لأنه لو لم يكن للحصر لما حسن ، لأن الله لم يزل رقيبا عليهم ، وانما الذى حصل بتوفيه أنه لم يبق لهم رقيب غير الله.. ومما يدل على الحصر أيضا قوله تعالى : « ان شانئك هو الأبتر »(١٥) وقوله تعالى : « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى »(١٦) لأن الانكار فى الآيتين لا يحصل الا بالحصر »(١٧) .

وأما تعريف الخبر فقد ذكر البلاغيون أن فى قولك : زيد المنطلق اختصاصا ، يقول فخر الدين الرازى : « واذا قلت : زيد المنطلق ، أو زيد هو المنطلق ، فاللام فى الخبر تفيد انحصار المخبر به فى المخبر

---

(١٣) شروح التلخيص ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .

(١٤) المائدة ١١٧ .

(١٥) الكوثر : ٣ .

(١٦) الشورى : ٩ .

(١٧) شرح السبكى ضمن شرح التلخيص ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

عنه مع قطع النظر عن كونه مساويا ، أو أخص منه ، ثم انها اما أن تكون لتعريف المعهود السابق ، وذلك مثل ما اذا اعتقدت وجود انطلاق معين ولكن لا تعلم أن المقصود به زيد أو عمرو ، فاذا قلت زيد هو المنطلق عينت أن صاحب ذلك الانطلاق المعين هو زيد ، فقد أفاد حصر ذلك الانطلاق المعين فى زيد ، واما لتعريف الحقيقة فيكون بوضعه مفيدا للحصر »(١٨) .

ويقول السكاكى : (متى قلنا : زيد المنطلق ، أو المنطلق زيد فى المقام الخطابى لزم أن يكون غير زيد منطلقا ، ولذا ينهى أن يقال : زيد المنطلق وعمرو بالواو ، ولا ينهى أن يقال : زيد المنطلق لا عمرو بحرف (لا) ثم اذا كان الأمر فى نفسه كذلك ، كما اذا قلت : الله العالم الذات حمل على الانحصار حقيقة ، والا كما فى قولك : حاتم الجواد ، وخالد الشجاع،وقوله عز وعلا:«الم ذلك الكتاب»(١٩) حمل على الانحصار مبالغة ، وتنزيلا لجود غير حاتم ، وشجاعة غير خالد ، وكون غير القرآن كتابا ، منزلة العدم لجهات اعتبارية »(٢٠) .

وذكر البلاغيون فى شرح التلخيص أن من أغراض تعريف المسند باللام افادة الحصر(٢١) .

---

(١٨) نهاية الايجاز ص ١٥٩ ، ١٦٠ ط دار العلم للملايين .

(١٩) البقرة ١ ، ٢ .

(٢٠) المفتاح ص ٢١٦ ، ٢١٧ ط دار الكتب العلمية .

(٢١) انظر ص ٩٩ وما بعدها ج ٢ .

وبعد ، فهذان الطريقان حريان بأن يذكرا بين طرق القصر ، وأن تكون هذه الطرق ستة يدور حولها بحثه • ولعل البلاغيين أبعدوا كلا من ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ، وتعريف المسند ، أو المسند اليه بلام الجنس ، لأن الأول لا يتعين لافادة القصر الا اذا انفرد وحده بالدلالة عليه ، أما اذا وجد معه غيره من الأدوات فانه تلغى دلالتـه على القصر ، فيست دلالته مطردة ، ولأن كلا منهما لا يجيء الا لقصر الخبر على المبتدأ صفة على موصوف ، فلا تأتى معهما كل صور القصر أو لأن البلاغيين قد تعرضوا لهما فى بحث أحوال المسند اليه والمسند•

ولعل الذى سوغ عد التقديم فى الطرق المذكورة مع أنه سـبق القول فيه هو أن التقـديم درس موزعا بين عدة أبواب ، ولم يدرس عند السكاكى والخطيب ومن تقليهما دراسة متكاملة •

وسنتناول هذه الطرق ان شـاء الله منزلين مراتبها فى تقيلهما الذكر على وفق قوة ظهور دلالتها على القصر كما فعل البلاغيون •

طريق العطف بلا وبل ولكن

ذكر الخطيب القزوينى أن (لا) يفـاد بهـا القصر ، والأمثلة التى مثل بها ظاهرها يدل على أنها تأتى للقصر الاضافى دون الحقيقى قال : « والقصر طرق ، منها العطف ، كقولك فى قصر الموصـوف على الصفة افرادا : زيد شاعر لا كاتب ، وما زيد كاتبا بل شاعر ، وقلبا: زيد قائم لا قاعد ، أو ما زيد قاعدا بل قائم ، وفى قصر الصـفة على

الموصوف افرادا أو قلبا بحسب المقام : زيد قائم لا عمرو ، أو ما عمرو قائما بل زيد » (٢٢) ولم يمثل لقصر التعيين •

ويعلق سعد الدين على أمثلة الخطيب بقوله : « وأما قصر التعيين فلم يمثل له ، لأن كل مثال يصح للافراد والقلب صالح له ، ويؤيد ارادة ما ذكر ارتكابه فى سائر الطرق ترك مثال التنافى فى قصر الصفة كما ترك مثال قصر التعيين » ثم قال : « ثم المشهور عندهم أن القصر الحاصل بالعطف لا يكون الا اضافيا ، لأن الاثبات انما هو باعتبار ما نفى بالعطف والحق أنه أكثر لا كلى لصحة كونه من الحقيقى اذا كان المنفى هو جميع ما سوى المذكور ، كقولك : زيد عالم البلدة لا غيره اذا فرض أن لا عالم فى البلد سواه ، وكقولنا : سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — خاتم الأنبياء لا غيره » (٢٣) وعلى هذا فـ (لا) يفاد بها القصر فى كل صوره

وعبد القاهر يذكر أن (لا) يؤتى بها فى مقام يعتقد المخاطب فيه العكس ، أى تفيد عكس ما يعتقده المخاطب ، ولا يؤتى بها الا لذلك قال : « ألا ترى أن ليس المعنى فى قولك : جاءنى زيد لا عمرو أنه لم يكن من عمرو مجىء اليك مثل ما كان من زيد حتى كأنه عكس قولك: جاءنى زيد وعمرو ، بل المعنى أن الجائى هو زيد لا عمرو ، فهو كلام تقوله مع من يغلط فى الفعل قد كان من هذا فيتوهم أنه كان من ذاك، والنكتة أنه لا شبهة فى أن ليس ههنا جائيان ، وأنه ليس الا جاء

---

(٢٢) الايضاح جـ ٣ ص ٢١ تعليق د/ خفاجى

(٢٣) شروح التلخيص جـ ٢ ص ١٩١ •

واحد ، وانما الشـــبهة فى أن ذلك الجائى زيد أم عمرو ، فأنت تحقق على المخـــاطب بقولك : جاءنى زيد لا عمـــرو أنه زيد وليس بعمرو • ونكتة أخـــرى وهى أنك لا تقول : جاءنى زيد لا عمرو حتى يكون قد بلغ المخاطب أنه كان مجىء اليك من جاء الا أنه ظن أنه كان من عمرو فأعلمته أنه لم يكن من عمرو ولكن من زيد »(٢٤) •

وعبد القاهر اعتمد ـــ فى تحديده لمقام (لا) ـــ على ما يسبق الى القلب من المعنى ، وهذا ليس أصلا منضـــبطا فى كل حال • ولعل هذا التحديد الذى ذهب اليه عبد القاهر فى مقام اســـتعمالات (لا) غيره من البلاغيين يحدد استعمالات بل ولكن •

هذا ، وان عبد القاهر عندما تعرض لـــ (لا) تعرض لها كمثال يوضح به دلالة (انما) فذكر أن (انما) تفيد ايجاب الفعل لشىء ونفيـــه عن غيره ، فاذا قلت : انما جاءنى زيد عقل منه انك أردت أن تنفى أن يكون الجائى غيره ، فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى فى قولك: جاءنى زيد لا عمرو »(٢٥) •

وفرق بين الطريقين ، فـــ (انما) توقع فى النفس الايجـــاب والنفى دفعة واحدة ، وفى حالة واحدة من الادراك ، بخلاف (لا) فان النفى والاثبـــات يدرك معها فى حالين • ويقيس حال المخـــاطب بـــ (انما) على حال المخاطب بـــ (لا) ، وكان اعتقاد المخاطب مع (انما) عكس ما يدل عليه الكلام مع (لا) ظاهر أمره ، فجعله فى ذلك أصـــلا •

---

(٢٤) الدلائل ص ٣٢٠ تعليق د/ خفاجى •

(٢٥) المصدر السابق نفس الصفحة •

وهنـــاك من يرفض أن تكون (لا) وأختاها ــ بل ولكن ــ من أدوات القصر ، وأن يكون العطف طريقا من طرقه ، قال بهـــاء الدين السـبكى : « أما العطف بـــ (لا) فأى قصر فيـــه ؟ انما فيـــه نفى واثبات ، فقولك : زيد شاعر لا كاتب لا تعرض فيه لنفى صفة ثالثة ، والقصر انما يكون بنفى جميع الصفات غير المثبت اما حقيقة أو مجازا ، وليس هو خاصا بنفى الصفة التى يعتقدها المخـــاطب • وأما العطف بـــ (بل) فأبعد ، فان قولك : ما زيد قائما بل قاعد لا قصر فيه ، وهو أبعد من القصر عما قبله ، لأن فى (لا) جمعا بين نفى واثبات ، وذلك لا يستمر فى (بل) اذا جوزنا عطفها على المثبت ، مثل زيد شاعر بل كاتب ، ثم ان اطلاق (بل) العاطفة للقصر لا يصح ، لأنه يقتضى أن قولك : ليس زيد قائما بل قاعد لا قصر فيه ، لأن (بل) لا تعطف الا المفرد كما صرح به النحاة »(٢٦) •

وهـــذا الرأى يقتلع طريق العطف من جذوره عن باب القصر • ولكن عرف الاستعمال اللغوى لهذه الأدوات مع معرفة المقـــام يدلان على افادتها القصر ، فأبو تمام عندما قال :

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

يريد أن يـــدد بالمنجمين ، وينفى زعمهم ، ويثبت جلاء الشك والريب للســـيوف ، وكأنه قال : ان جلاء الشك والريب انما يكون فى السيوف • أو لا يكون جلاء الشك والريب الا فى السيوف • ونقول فى لغتنا الدارجة فى ضبط حســـاباتنا : فى ذمتى له ثلاثون لا غير »

---

(٢٦) شرح السبكى ضمن شروح التلخيص جـ ٢ ص ١٨٧ •

ونقول : فلان فعل ذلك رغبة لا رهبة • ونحن حينما نقول ذلك ندفع به اعتقاد عكس ما قلنا ، أو نزيل به ترددا •

والمقصور عليه بطريق (لا) هو المقابل لما بعدها ، ففى قولك : شوقى شاعر لا كاتب المقصور عليه هو شاعر ، وقولك : شوقى شاعر لا المازنى ، المقصور عليه هو شوقى •

وذكر البلاغيون أن (بل) تفيد القصر اذا وقعت بعد نفى كقولك ما جاء زيد بل عمرو ، فاذا جاءت بعد اثبات فلا تفيد ، كقولك : جاء زيد بل عمرو ، لأن المعنى هنا على أنك نقلت حكم المجىء الى التابع الذى هو عمرو ، وجعلت المتبوع الذى هو زيد فى حكم المسكوت عنه وبذلك تفيد الجملة اثبات الشىء للشىء فقط ، ولا تفيد نفيه عن غيره لأن الحكم المسكوت عنه لا يوصف بنفى ولا اثبات ، بخلاف ما اذا تقدمها نفى فانها تفيد نفى الفعل عن المتقدم عليها ، واثباته لما بعدها وبذلك يتحقق فى مدلولها معنى القصر • وقد خالف الجمهور فى ذلك ورأوا أن (بل) بعد النفى تفيد ثبوت الحكم للتابع مع السكوت عن ثبوته أو انتفائه عن المتبوع ، فقولك : ما جاء زيد بل عمرو يفيد اثبات المجىء لعمرو ، والسكوت عن مجىء زيد ، وكأن معنى الاضراب والانتقال فى (بل) جعل الحكم السابق مسكوتا عنه ، وذلك يستوى فيه النفى والاثبات ، وهذا ملاحظ فيه عدم التنافى بين العطف والاضراب • وذهب المبرد الى أن قولك : ما جاءنى زيد بل عمرو يفيد نفى الحكم عنهما ، أى أنه لم يجئك زيد ولا عمرو ، لأن عطف عمرو على زيد يقتضى أن يشاركه فى الحكم ، وكأن المعنى بل ما جاءنى

عمرو ، وبهذا لا تفيد معنى القصر(٢٧) • والعطف عند من يقول بالقصر لا يلاحظ النفى ، وانما تفيد كما قال ابن يعقوب : « ثبوت ضد حكم ما قبلها لما بعدها مع تقرير النفى لما قبلها ، واما اذا بنى على أنها لنقل الحكم لما بعدها ، ويصير ما قبلها فى حكم المسكوت عنه حتى بعد النفى كما قيل فلا تفيد قصرا »(٢٨) •

أما (لكن) فيقول سعد الدين فيها : « فظاهر كلام المفتاح والايضاح فى باب العطف أنه يصلح طريقا للقصر»(٢٩) وقال الايضاح فى باب العطف : وقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو ان اعتقد أن زيدا جاءك دون عمرو • وهى نفس عبارة المفتاح(٣٠) • وقد نقل سعد الدين هذه العبارة من الايضاح ثم قال : « ولم يذكره المصنف ههنا — يعنى فى التلخيص — لكونه مثل (لا) فى الرد الى الصواب ، الا أن (لا) لنفى الحكم عن التابع بعد ايجابه للمتبوع ، و (لكن) لايجابه للتابع بعد نفيه عن المتبوع »(٣١) •

فالفرق بين (لا) و (لكن) من حيث الدلالة فى الاثبات والنفى فالذى بعد (لا) منفى عنه الحكم ، والذى بعد (لكن) ثابت له الحكم ثم هى بعد ذلك مثل (لا) فى رد خطأ المخاطب الى الصواب •

---

(٢٧) انظر شروح التلخيص جـ ١ ص ٣٨٣ فهذا كلام مستخلص من شروحهم لباب العطف ومن المطول ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٢٨) شرح ابن يعقوب جـ ٢ ص ١٩٠ •

(٢٩) المطول ص ٢١١ •

(٣٠) المفتاح ص ١٩١ •

(٣١) المطول ص ١٠٢ •

والخلاف فى « بل » يفترق عن الخلاف فى « لكن » فالخلاف فى « بل » فى جوهر الدلالة • أما الخلاف فى «لكن» ففى مقاماتها، والأحوال التى يؤتى بها من أجلها •

والمقصور عليه مع «بل» و «لكن» هو ما بعدهما فقولك : ماشوقى كاتب بل شاعر،أو ما شوقى كاتب لكن شاعر ، المقصور عليه هو شاعر

طريق العطف والمقام

اذا طرحنا من يرفض أن يكون العطف بـ « لا » و « بل » و « لكن » طريقا من طرق القصر من البيانيين الذين تعرضوا لهذا الطريق ، وأخذنا برأى القائلين بالافادة وهم الغالبية • وأن « لا » عند بعضهم يمكن أن تستعمل فى القصر الحقيقى فيمكن أن نحدد المقامات التى يستعمل فيها طريق العطف • فـ « لا » اذا جاءت فى الحقيقى ليكون مقامها تقرير الحقيقة ، كقولك : محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ خاتم الأنبياء لا غيره • فمعنى التركيب حقيقى،وجاءت « لا » لتقرر هذه الحقيقة • وتأتى أيضا لرد خطأ المخاطب فى حكمه بعكس ما حكمت به ، وهو قصر القلب ، ورد خطأ المخاطب فى اعتقاده الشركة،وهو قصر الافراد،ودفع تردد المخاطب وازالة شكه،وتردده فى قصر التعيين • و « بل » تفيد قصر الافراد ، والقلب والتعين ، ومقاماتها نفس مقامات « لا » فى القصر الاضافى مع ملاحظة اختلافهما فى المثبت والمنفى • أما « لكن » فتفيد قصر القلب عند البيانيين فمقامها رد خطأ المخاطب فى حكمه بعكس ما حكمت عليه •

وان كانت هذه المقامات تشترك فيها كل طرق القصر اذا كان القصر

اضافيا تدقيقيا الا أنها ــ أى المقامات ــ مع العطف أوضح وأبين ، لأن فيه لا فى غيره النص على المثبت والمنفى جميعا •

هذا ، وان هناك مقامات أخر لا يصلح الا العطف باعتبار أن فيه النص على المثبت والمنفى وهى التنديد والتعريض ، أو التوضيح والتقرير والايحاء ، أو بيان الحال للتفخيم والتعظيم والتهويل ، أو التهكم اللاذع • ونجد هذه المعانى واضحة فى قصيدة أبى تمام التى يمدح فيها المعتصم بالله ، ويذكر فتح عمورية ، فهو يعتمد كثيرا فى صوره المعبرة المؤثرة على طريق العطف ، ففى مطلع القصيدة يندد ويعرض بكتب المنجمين ، ويعرض بالمقومات التى بنوا عليها علومهم ، وهى السبعة الشهب ، وذلك أن المنجمين حذروا المعتصم فتح عمورية فى هذا الأوان ، وقالوا : انا نجد فى الكتب أنها لا تفتح الا فى زمن نضج التين والعنب ، فلم يعبأ المعتصم بقولهم ، بل لبى صوت المرأة المسلمة التى أراد الروم سبيها فصاحت : وامعتصماه ، وقاد جيشه بنفسه ففتح عمورية ، وعاد غانما قد أذل الكفر ، وأعلى كلمة الاسلام •

استمع الى أبى تمام يقول :

السيف أصدق انباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى
متونهن جلاء الشك والريب

والعلم فى شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

ففى البيت الثانى قصر جلاء الشك والريب على بيض الصفائح قصر قلب ، وهو هنا فى مقام التنديد بالمنجمين .

وفى الثالث قصر العلم على شهب الرماح ، وهو قصر قلب أيضا، ويقصد منه التعريض بالمقومات التى بنى عليها المنجمون علـومهم ، وهى السبعة الشهب ، فالمقام مقام تعريضى .

ثم يشيد ببطولة المعتصم وجيشه ، فنالوا من الأعداء نيلا جعل ذوائبهم مخضبة بالدماء الحارة ، ووضح هذا المعنى وقرره فى صورة تشع ايحاء وتعريضا . يقول :

كم بين حيطانها من فارس بطل قانى الذوائب من آنى دم سرب
بسنة السيف والحناء من دمـه لا سنة الدين والاسلام مختضب

قصر الاختضاب على سنة السيف ، والقصر هنا للتعريض بهؤلاء الذين عدلوا عن سنة الدين والاسلام فأكرهوا على سنة السيف .

ثم يوضح الدافع الذى استحال فى نفس المعتصم عزما أكيـدا على غزو الروم . يقـول :

هيهات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

فالقصر هنا لبيان الحال تفخيما للغزو ، واعلاء من شأنه ، ويؤيد هذا المعنى قـوله :

فان الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

ثم يصور أبو تمام قائد الروم وقد أعيته الحيل تجاه المعتصم ، يقـــول :

ولى وقـد ألجم الخطى منطقـه بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى يحثث أنجى مطاياه من الهرب
مـوكلا بيفـاع الأرض يشرفـه من خفة الخوف لا من خفة الطرب

وهنا وصـل أبو تمام ـ عن طريق العطف ـ الى قمـة التهكم اللاذع فى قوله : من خفة الخوف لا من خفة الطرب ، فالقائد آنذاك لم يستخفه الطرب ، وانما استخفه الخوف .

طريق النفى والاستثناء

اختلف البلاغيون فى أسلوب الاستثناء الذى يفيد القصر ، هل هو الاستثناء المفرغ ، أو هو الاستثناء التام المنفى ، أو هو الاستثناء التـام الموجب .

فبهاء الدين السبكى يذهب الى أن صور الاستثناء تفيد القصر ، قال : « والاستثناء قصر سواء أكان مع النفى أم الايجاب،كقولك : قام الناس الا زيدا ، فانك قصرت عدم القيام على زيد . لا يقال : لو قصرت عدم القيام على زيد لكان فى قولك : قام الناس الا زيدا نفى لقيام غير الناس ، لأنا نقول هو قصر لعـدم القيام بالنسبة الى الناس على زيد ، كما أنك اذا قلت : ما قام الناس الا زيدا لم تقصر القيام على زيد مطلقا ، انما قصرت عليه القيام بالنسبة الى الناس،

فقولهم ــ يقصد البلاغيين ــ من طرق الحصر النفى والإستثناء لا يظهر فيه مناسبة التعرض للنفى »«٣٥» •

والسبكى نظر الى ما تفيده «الا» فما بعدها مخرج من المستثنى منه ، فالحكم الصادر على المستثنى منه يخالف الحكم على المستثنى، فقولك : قام الناس يفيد اثبات القيام للناس ، ولفظة « الا » فى أسلوب الاستثناء تخرج من هذا الحكم المذكور بعدها ، وكأن أداة الاستثناء دلت على نفى الحكم للمذكور بعدها ، وبناء على هذا الاعتبار فالأسلوب هنا فيه اثبات ونفى ، وهذا هو معنى القصر •

وابن يعقوب المغربى يذهب الى أن الاستثناء المنفى يفيد القصر سواء ذكر فيه المستثنى منه أم لا • قال شارحا قول الخطيب « ومنها النفى والاستثناء » قال : « ولم يقل ومنها الاستثناء ، لأن الاستثناء من الاثبات ، كقولك : جاء القوم الا زيدا ليس من طرق القصر ، اذ الغرض منه الاثبات ، والاستثناء قيد ، فكأنك قلت : جاء القوم المغايرون لزيد • ولو كان من طرقه لكان أيضا من طرقه نحو قولك : جاء الناس الصالحون ، بخلاف ما قدم النفى فيه ثم أتى بالاستثناء سواء ذكر المستثنى منه أم لا فان الغرض منه النفى ثم الاثبات المحققان القصر »(٣٦) •

وفى موضع آخر يقول معلقا على قول من ذهب الى أن الاستثناء

---

(٣٥) عروس الأفراح جـ ٢ ص ١٩١ شروح التلخيص •
(٣٦) مواهب الفتاح جـ ٢ ص ١٩١ شروح التلخيص •

المنفى المذكور فيه المستثنى منه ليس من القصر ــ يقول : «ولايخفى ضعفه ، لأن معنى الحصر موجود فيه قطعا »(٣٧) •

وعند الجمهور المقصود بالاستثناء هو الاستثناء المفرغ•أما الاستثناء المنفى المذكور فيه المستثنى منه فليس من طرق القصر الاصطلاحية ــ وان كان يفيد القصر ــ وذلك لأن ما قبل الأداة كلام تام يحسن السكوت عليه ، وما بعد الأداة كأنه قيد له ، فليس القصر داخلا فى صميم الدلالة ، وليست متوقفة عليه ، وذلك بخلاف ما قام الا زيد ، فانك قبل الاستثناء لا تستطيع أن تفيد شيئا من العبارة الا بتقدير المقدر • قال الانبابى : « ان الاستثناء منه أيضا ــ يعنى من التام ــ لتصحيح الحكم المنفى ، لأن قولك : ما جاءنى القوم حصل فيه الحكم، لكن لما كان هذا الحكم شاملا لزيد قيد القوم بغير زيد ليصح الحكم المنفى ، فهو كقولك : جاءنى الرجال الا الجهال ، بخلاف ما جاءنى الا زيد ، لأنه قبل ذكر « الا زيد » لم يحصل حكم حتى يكون الا زيدا لتقييده »(٣٨) •

يفهم من هذا أن الاستثناء التام المنفى لم يعد من طرق القصر الاصطلاحية ، لأن ما قبل الأداة يحسن السكوت عليه ، أى أن الحكم الذى هو مناط الفائدة فى الجملة يحصل بالاسناد الى المستثنى منه ، وأن الاستثناء المفرغ لا يفهم منه الحكم الا بذكر المستثنى ، وطرق

---

(٣٧) المصدر السابق ص ٢٠٧ •

(٣٨) تقرير الانبابى على حاشية البنانى على شرح المختصر جـ٣ص٦٤

القصر عندهم هى التى يجىء بها أسلوب القصر على صورة تدل على الاثبات والنفى بجملة واحدة ، وهذا يتحقق فى المفرغ دون التام ، لذا لم يعد من طرق القصر الاصطلاحية عند المانعين •

والنفى فى الاستثناء المفرغ يتوجه الى مستثنى منه مقدر حتى يتأتى الاخراج منه ، اذ لو لم تقدره استعمال الاستثناء ، لأنك لاتخرج شيئا من لا شىء • ولابد فى هذا المقدر من أن يكون عاما شاملا للمستثنى وغيره ، وأن يكون جنسا قريبا المستثنى ، وأن يكون مناسبا للمستثنى فى وصفه الاعرابى ، بحيث لو قدر موجودا لجرى عليه نفس الحكم الاعرابى الذى جرى على المستثنى كوقوعه فاعلا أو مفعولا أو حالا(٣٩) •• الخ • والنفى يشمل كل أدواته كليس وان وما والاستفهام الذى بمعنى النفى • ومثل « الا » « غير » فى افادة القصر بين قصر الصفة على موصوف ، وقصر الموصوف على الصفة •

ويستدل السكاكى على أن النفى مسلط على مستثنى منه عام بقوله « ولذلك تراقا فى علم النحو نقول : تأنيث الضمير فى «كانت» فى قراءة أبى جعفر المدنى « ان كانت الا صيحة واحدة »(٤٠) بالرفع ، وفى « ترى » المبنى للمفعول فى قراءة الحسن : «فأصبحوا

---

(٣٩) انظر هذه الشروط فى المفتاح ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ وقد ذكرها الخطيب فى ايضاحه •

(٤٠) سورة ياسين الآية ٢٩ ، ٥٣ •

لا يرى الا مساكنهم »(٤١) ، وفى « بقيت » فى بيت ذى الرمة :

وما بقيت الا الضلوع الجراشع

للنظر الى ظاهر اللفظ ، والأصل التذكير لاقتضاء المقام معنى شىء من الأشياء »(٤٢) أى أن الأصل : ان كان شىء الا صيحة أى ما كان شىء الا صيحة واحدة ، فلم يكن بجند ولا بشىء من الأشياء ، وانما كانت صيحة . القصر هنا اضافى ، لأن فيه نفى أن يكون هناك جند .

وقوله تعالى : « فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم » أى لا يرى أثر من آثارهم الا مساكنهم . والقصر هنا حقيقى تحقيقى .

وفى بيت ذى الرمة وصف لناقته بالضمور ، فالسير أضمر ما يحيط به حزامها ، فما بقى منه شىء الا الضلوع الجراشع ، أى الغليظة المنتفخة . والقصر هنا حقيقى ادعائى .

فالتأنيث فى هذه الشواهد منظور فيه الى اللفظ ، بمعنى أن المسند اليه المذكور ليس هو المسند اليه الحقيقى ، لأن المسند اليه الحقيقى مقدر ، والنفى مسلط على المقدر .

وتسليط النفى على المستثنى العام بشروطه التى ذكرت يعنى نفيه ، فاذا جئت بأداة الاستثناء وأخرجت المستثنى من هذا النفى العام تكون قد جعلت الشىء الذى تنفيه عن غيره له ، فمثلا ما جاء الا زيد ،

---

(٤١) سورة الاحقاف ٢٥ .

(٤٢) المفتاح ص ٢٩٨ .

فيه نفى المجىء عن كل شىء ، واثباته لزيد ففيه اثبات الشىء للمذكور ونفيه عن غيره ، وهذا هو معنى القصر •

وحين ننظر الى جملة النفى والاستثناء نجد أن النفى يأتى أولا، والاثبات يأتى بعد « الا » ، ومعنى ذلك أن هذا الطريق يدل على النفى والاثبات ، لأن فيه النص على النفى لا على المثبت ، وهذا جعل السيوطى يذهب الى أن هذا الطريق يدل على النفى بالمنطوق ، ويدل على المثبت بالمفهوم(٤٣) • وهذا خلاف ما يرى جمهور البلاغيين،لأن طرق القصر الثلاثة وهى النفى والاستثناء ، وانما ، والتقديم تدل على المثبت دون المنفى • قال الخطيب « وأما الثلاثة الباقية فتدل على المثبت دون المنفى »(٤٤) ويشرح ابن يعقوب المغربى هذه العبارة يقول : « وأما فى الثلاثة الباقية ، وهى ما والا ، وانما ، والتقديم فالأصل فيها النص على المثبت فقط ، أى المثبت له الحكم فى قصر الصفة ، والمثبت لغيره فى قصر الموصوف ، فتقول فى ما والا فى قصرها ــ أى الصفة ــ ما قائم الا زيد ، فقد نصصت على الذى أثبت له القيام وهو زيد ، ولم تنص على الذى نفى عنه وهو عمرو مثلا .. »(٤٥) •

فجمهور البلاغيين نظروا الى الفكرة فى جملتها ، والى المعنى عند تمامه ، فالنفى والاستثناء فيما ذكره السيوطى ظاهره النفى وباطنه الاثبات ، وعند الجمهور ظاهره الاثبات وباطنه النفى •

---

(٤٣) انظر الاتقان جـ ٢ ص ٥٢ •

(٤٤) الايضاح

(٤٥) مواهب الفتاح جـ ٢ ص ٢٠٦ شروح التلخيص •

وموقع المقصور عليه فى النفى والاستثناء هو الواقع بعدها ، فقولنا : ما شوقى الا شاعر المقصور عليه شاعر • ولو قلنا : ما شاعر الا شوقى يكون المقصور عليه شوقى •

ولا يجوز بحال من الأحوال تقديم المقصور عليه على أداة الاستثناء ، لأن هذا يوقع فى لبس ، فلا يعرف المقصور من المقصور عليه ، ولأن الأداة هى الدليل على المقصور عليه ، فاذا تقدم عليها عدم الدليل •

وجاء على قلة تقديم المقصور عليه الذى تقدمت عليه أداة الاستثناء كقول الكميت :

وما لى الا آل أحمد شيعة وما لى الا مذهب الحق مذهب

وأصل الترتيب : وما لى شيعة الا آل أحمد ، وما لى مذهب الا مذهب الحق •

فجاء البيت على خلاف الترتيب الطبيعى ، وهذا هو سبب القلة ، لكنه لم يحدث لبس لوجود الدليل على المقصور عليه المتقدم على المقصور وهو « الا » وهذا هو سبب الجواز •

فالاختصاص يقع فيما يلى « الا » ولهذا جاز تقديم الفاعل المقصور عليه مع «الا» وتأخير المفعول، تقول : ما أكرم الا محمد عليا ، وما كتب الا محمد الشعر وهكذا ، ويفيد ذلك ما يفيده قولك : ما أكرم عليا الا محمد ، وماكتب الشعر الا محمد من حيث دلالة القصر ، فمادام الواقع بعد « الا » لم يتغير فالدلالة ثابتة وان كان هناك فرق فهو فرق لا يرجع الى جوهر دلالة القصر ، وانما هو العناية بالمتقدم •

واذا زحزحت أداة الاستثناء وقلت : ما أكرم محمد الا عليا ، وما كتب محمد الا الشعر خرجت الى معنى آخر ، لأن كلا من على والشعر صار هو المقصور عليه ، فأصبح المقصور عليه مفعولا وكان هناك المقصور عليه فاعلا • قال عبد القاهر • ثم اعلم أن السبب فى لم يكن تقديم المفعول فى هذا كتأخيره ، ولم يكن ما ضرب زيدا الا محمد ، وما ضرب عمرو الا زيدا سواء فى المعنى أن الاختصاص يقع فى واحد من الفاعل والمفعول ، ولا يقع فيهما جميعا ، ثم انه يقع فى الذى يكون بعد « الا » منهما دون الذى قبلها ، لاستحالة أن يحدث معنى الحرف فى الكلمة قبل أن يجىء الحرف ، واذا كان الأمر كذلك وجب أن يفترق الحال بين أن تقدم المفعول على « الا » فنقول : ما ضرب زيدا الا عمرو ، وبين أن تقدم الفاعل ، فتقول : ما ضرب عمرو الا زيدا ، لأنا ان زعمنا أن الحال لا يفترق جعلنا المتقدم كالمتأخر فى جواز حدوثه فيه وذلك يقتضى المحال ، الذى هو أن يحدث معنى «الا» فى الاسم من قبل أن تجىء بها فاعرفه»(٤٦)

وتقديم الفاعل المقصور عليه مع « الا » وتأخير المفعول ليس أسلوبا شائعا ، وانما يأتى قليلا ، قال عبد القاهر : « اعلم أن الذى ذكرناه من أنك تقول : ما ضرب الا عمرو زيدا فتوقع الفاعل والمفعول جميعا بعد « الا » ليس بأكثر الكلام ، وانما الأكثر أن تقدم المفعول على « الا » نحو ما ضرب زيدا الا عمرو • حتى أنهم ذهبوا فيه أعنى فى قولك : ما ضرب الا عمرو زيدا الى أنه على كلامين ، وأن

---

(٤٦) دلائل الاعجاز ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤ تعليق د/ خفاجى .

زيدا منصوب بفعل مضمر حتى كأن المتكلم بذلك أبهم فى أول أمره فقال : ما ضرب الا عمرو ، ثم قيل له : من ضرب ؟ فقال : ضرب زيدا »(٤٧) .

والسر فى أن هذا التركيب ليس بأكثر الكلام ، وأن بعضهم عده كلامين أن القصر فى هذا الأسلوب فيه شىء من النقص لأننا اذا قلنا : ما كتب الا محمد الشعر ، لم نرد قصر الكتابة فقط على محمد ، وانما نريد قصر كتابة الشعر على محمد ، فالفعل المتعدى الى مفعول فعل خاص ، وهو المقصود بالقصر ، وتأخير مفعوله يعنى تأخير جزء من المقصور على المقصور عليه ، وتم القصر بالا قبله .

وبعض النحاة منع تقديم الفاعل مع « الا » على المفعول ، فلا يجيز ما ضرب الا محمد زيدا ، وتقديم المفعول مع « الا » على الفاعل ، فلا يجيز ما ضرب الا زيدا عمرو . وذلك لأن « الا » أداة يخرج بها شيئان ، وحينئذ يصح أن يكون كل واحد مما بعدها مستثنى بها ، وبذلك يقع فى العبارة لبس .

قال ابن يعقوب : « وأكثر النحويين على المنع ، واياه اعتمد المصنف ، ولذلك حكم بالجواز على وجه القلة . وبعضهم جوزه اذا صرح بالمستثنى منه ، كأن يقال : ما ضرب أحد أحدا ، الا زيد عمرا ، فـ « الا زيد » مستثنى من الأحد الأول ، وعمرا مستثنى من الأحد الثانى »(٤٨) .

---

(٤٧) المصدر السابق ص ٣٣٠ .

(٤٨) شرح ابن يعقوب ج ٢ ص ٢٢٧ شروح التلخيص .

ومنهم من يجيز ذلك من غير تصريح بالمستثنى منه بناء على أن « الا » أداة لا يخرج بها الا شيء واحد ، فلا يقع لبس فيما بعدها، فاذا قلت : ما ضرب الا محمد زيدا ، لم يتوهم أن زيدا مستثنى ، لأنه لا يخرج بها الا ما يليها « وذلك لضعفها ، لأن أصلها لا النافية وهى لا تنفى الا شيئا واحدا ، فيعلم مع التقديم حيث يقصد الحصر فى مواليها ما هو المراد من التركيب من قصر ما بعد مدخولها على مدخولها »(٤٩) فالمقصور هو الواقع بعد « الا » تقدم او تأخر ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن يتقدم عليها ، أو يلى الذى بعدها.

هذا ، ولا يجامع النفى والاستثناء « لا » العاطفة ، لأن النفى فى الاستثناء المفرغ مسلط على مستثنى منه عام ، فمثلا : ما قام الا محمد ، النفى فيه منصب على أحمد ومحمود وخالد ، وكل من غاير محمدا ، لهذا لا يجوز أن نقول : ما جاء الا محمد لا على وذلك لأننا نفينا الفعل عن على بالنفى الأول ، لأنه داخل فى هذا العموم الذى تسلط النفى عليه ، و « لا » العاطفة موضوعة لأن ينفى بها الشيء ابتداء • كذلك لا يصح أن نقول : ما جاءنى أحد الا زيد ، لأن زيدا ، داخل فى مضمون أحد المنفى عنه المجيء • فاذا جئنا بالواو ، وقلنا : ما جاءنى أحد ولا زيد صح التركيب • قال عبد القاهر: « ليس من كلام الناس أن يقولوا : ما زيد الا قائم لا قاعد ، فان ذلك انما لم يجز من حيث انك اذا قلت : ما زيد الا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافى القيام ، وصرت كأنك قلت ليس هو بقاعد ، و مضجع ،

---

(٤٩) حاشية الدسوقى جـ ٢ ص ٢٦ شروح التلخيص .

ولا متكيء ، وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام ، فاذا قلت من بعد ذلك « لا قاعد » كنت قد نفيت بـ « لا » العاطفة شيئا قد بدأت فنفيته ، وهى موضوعة لأن تنفى بها ما بدأت فأوجبته ؛ لا لأن تفيد بها النفى فى شيء قد نفيته »(٥٠) •

وسعد الدين يقول : « وقد يقع مثل ذلك فى كلام المصنفين » ويعلق الدسوقى على هذه العبارة بقوله : « أى لا فى كلام الله ، بل ولا فى كلام البلغاء الذين يستشهد بكلامهم • ومراده بهذا التعريض بصاحب الكشاف حيث قال فى تفسير قوله تعالى « فاذا عزمت فتوكل على الله »(٥١) أى لأن الأصلح لك لا يعلمه الا الله لا أنت،وبالحيرى حيث قال :

لعمرك ما الانسان الا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

ولا يقال ان الزمخشرى ممن يستدل بتراكيبه عند الشارح والسيد وغيرهما ، لأنا نقول : انما يستدلون بكلامه فيما لم يخالف فيه الجمهور،وهذا مذهب له مخالف فيه للجمهور فلا يستدل به »(٥٢) •

ويقول ابن يعقوب : « ووقوع مثل هذا الكلام ــ أى اجتماع النفى والاستثناء مع لا العاطفة ــ فى كلام المصنفين لا يدل على الجواز فى أصل العربية »(٥٣) •

---

(٥٠) دلائل الاعجاز ص ٣٢٣ ، ٣٢٨ تعليق د/ خفاجى •

(٥١) آل عمران ١٥٩ •

(٥٢) حاشية الدسوقى جـ ٢ ص ٢٠٧ شروح التلخيص •

(٥٣) شرح ابن يعقوب جـ ٢ ص ٢٠٨ شروح التلخيص •

مقامات النفي والاستثناء :

يقول عبد القاهر : « وأما الخبر بالنفي والاثبات نحو : ما هذا الا كذا ، وان هو الا كذا فيكون للأمر الذي ينكره المخاطب ويشك فيه ... وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئا من المعلوم الذي لايشك فيه قد جاء بالنفي فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه »(٥٤) .

ويقول السكاكي : « ما من موضع يأتي فيه النفي والاستثناء ألا والمخاطب عند المتكلم مرتكب للخطأ مع اصرار ، اما تحقيقا اذا أخرج الكلام على مقتضى الظاهر ، واما تقديرا اذا أخرج لا على مقتضى الظاهر »(٥٥) .

النفي والاستثناء أظهر الطرق ، وأقواها في الدلالة على القصر، لهذا يستعمل في المقامات التي تقتضي قوة المعنى،كالرد على المنكرين والشاكين ، وتقوية الصفة التي يتعلق بها الحكم ، أو ما ينزل منزلة ذلك ، أو لتأكيد احساس المتكلم بالفكرة وابراز عمقها في نفسه ، اذا كان كذلك ، أو يأتي لمحض التوكيد والتقرير .

فمن الأول قوله تعالى : « ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا »(٥٦) فاذا كان القرآن شفاء

---

(٥٤) دلائل الاعجاز ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٥٥) المفتاح ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٥٦) الاسراء ٨٢ .

ورحمة فكيف يكون خسارا للظالمين ؟ فالمقام مقام شك يحتاج الى تأكيد لذا جيء بالنفى والاستثناء •

وقوله تعالى : «نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »(٥٧) القائل الظالمون ، والمخاطب المؤمنون ، والمؤمنون ينكرون أن يكون الرسول رجلا مسحورا لذا جيء بالنفى والاستثناء •

ومنه قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب »(٥٨) فأمر الساعة أو قيامها نبأ شك فيه كثير من الكفار ، بل تجاوزوا الشك الى الانكار الشديد ، وما يحدث فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب ، لذا أكد القرآن الكريم وجوده فى كثير من آياته ، والقرآن الكريم هنا يؤكد قربه ، وأنه أقرب من لمح البصر ، ولأن المخاطبين ينكرون هذا اليوم أصلا،فانهم لا يسلمون ضمنا بقربه ، ولذا جاءت الآية بالنفى والاستثناء •

ومنه قوله تعالى : « حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين • وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون »(٥٩) قوله : «ان هذا الا أساطير الأولين» جاء بالنفى والاستثناء ، لأن المتكلمين هم الذين كفروا ، وهم يوجهون

---

(٥٧) الاسراء ٤٧ •

(٥٨) النحل ٧٧ •

(٥٩) الأنعام ٢٥ ، ٢٦ •

كلامهم الى عقيـدة رافضـة ، ومخاطبا منكرا أشد الانكار أن يكون ما يدعوهم اليه أساطير ، ويعتقد أوثق اليقين أنه حق لا ريب فيه • وقوله : « وان يهلكون الا أنفسهم » جاء أيضا بالنفى والاستثناء لأن المخاطبين ينكرون أنهم لا يهلكون الا أنفسهم ، ويعتقدون أنهم يهلكون الرسالة وصاحبها وكتابها •

ومنه قوله تعالى:«ودت طائفة من أهل الكتاب لويضلونكم ومايضلون الا أنفسهم وما يشعرون »(٦٠) قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » يفيد أنهم يودون أن يضلوهم ، وكونهم كذلك فهم أبعد ما يكونون عن الاعتقاد بأنهم يضلون أنفسهم ، لذا جـاء قوله : « وما يضلون الا أنفسهم » بالنفى والاستثناء قصرا للاضلال الواقع منهم على أنفسهم ، لا يتعداها الى المؤمنين •

ومنه قوله تعالى:«ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ومايضلون فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين • ان هذا لهـو القصص الحق وما من الـه الا الله وان الله لهو العـزيز الحكيم »(٦١) جـاء قوله « وما من اله الا الله » فيه قصر الألوهيـة على الله ، وجـاء بالنفى والاستثناء ، لأنه موجه الى من يرفض هذه الحقيقة ويجادل فيها ، ويناهض بالحجة والدليل ، وهو قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيـا •

ومن الشعر قول ابن الرومى :

وماالحقد الا توءم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض

---

(٦٠) آل عمران ٦٩ •

(٦١) آل عمران ٦١ ، ٦٢ •

فابن الرومى هنا يرى أن الحقد والشر توءمان وأن سجايا الانسان وطبائعه قريب بعضها من بعض ، فالشخص الذى يحقد على الاساءة هو نفسه الذى يشكر على الاحسان ، وهذا حكم غريب يشك فيه ، ولا يسلم له ، اذا استخدم ابن الرومى النفى والاستثناء •

ومنه قــول أبى العــلاء المعرى :

وما آدب الأقوام فى كل بلدة الى الين الا معشر أدباء

اننا نعرف أن الأدب رائد للمجتمــع ، وهاد أفراده الى حيــاة أفضل ، يتخلصون فيها من عقد الانسان ومشكلاته ، ويثورون فيها على الظلم والظالمين حتى تصفو حياتهم من كل ما ينغص عليهم هذه الحياة، ولكن المعرى يرى — من وجهــة نظره — أن سبب وقوع الناس فى الكذب فى كل مكان هم الأدباء وهذا حكم على الأدباء مما ينكر ويشك فيه ، لذا استخدم النفى والاستثناء •

قلنا : ان من مقامات طريق النفى والاستثناء مواجهة المخــاطب المنكر أو الشاك ، أو ما نزل منــزلة ذلك ، وقد طبقنا شــواهد على الحــال المنكرة •

أما المقامات التنزيلية فهى التى يكون فيها المخاطب غــير منكر ولا شاك للخبر ، وانما بدا منه ما يخالف الحقائق ، والمعتقدات المسلم بها ، فيخاطب مخاطبة المنكر الشاك تنزيليا •

ومن شواهد البلاغيين المشــهورة قوله تعالى : « وما محمــد

الا رسول قد خلت من قبله الرسل »(٦٢) •

فالصحابة هم المخاطبون ، وهم يعلمون ويعتقدون أنه عليه الصلاة والسلام كغيره من الرسل يموت كما ماتوا ، وهذه حقيقة لا يجهلونها ، ومعتقد لا ينكرونه ، وبناء على هذه الحال لا يجيء الأسلوب بالنفى والاستثناء ، ولكنهم لما استعظموا نبأ موته عليه الصلاة والسلام حين أشيع ذلك ، وزلزلوا واضطربوا كان حالهم هذا كحال من جهل هذه الحقيقة وأنكر هذا الاعتقاد فخوطبوا مخاطبة المنكرين •

والقصر هنا من القصر الاضافى ، وقيل هو قصر قلب بناء على أن جملة « قد خلت من قبله الرسل » صفة لـ « رسول » « فتكون هى محط القصر ، أى ما هو الا رسول موصوف بخلو الرسل قبله ، أى انقراضهم ، وهذا الكلام مسوق لرد اعتقاد من يعتقد انتفاء خلو الرسل من قبله،وهذا الاعتقاد وان لم يكن حاصلا لأحد من المخاطبين الا أنهم لما صدر عنهم ما من شأنه أن يكون أثرا لهذا الاعتقاد ، وهو عزمهم على ترك نصرة الدين ، والاستسلام للعدو كانوا أحرياء بأن ينزلوا منزلة من يعتقد انتفاء خلو الرسل من قبله حيث يجدون أتباعهم ثابتين على مللهم حتى الآن ، فكان حال المخاطبين حال من يتوهم التلازم بين بقاء الملة ، وبقاء رسولها ، فيستدل بدوام الملة على دوام رسولها ، فاذا هلك رسول الملة ظنوا انتهاء شرعه ، وابطال اتباعه ، فالقصر على هذا قصر قلب ، وهو قلب اعتقادهم لوازم ضد الصفة

---

(٦٢) آل عمران ١٤٤ •

المقصـــور عليها ، وهو خلو الرســـل قبله ، وتلك اللوازم هى الوهن والتردد فى الاستمرار على نشر دعوة الاسلام ، وبهذا يشـــعر كلام صـــاحب الكشاف »(٦٣) •

وعند السكاكى ومن تبعه قصر افراد ، اذ جعل المقصور عليه هو وصف الرسالة ، فيكون محط القصر هو «رسول» ويكون القصر قصر افراد بتنزيل المخاطبين منزلة من اعتقدوا صفة بالرسالة مع التنزه عن الموت حين رتبوا على ظن موته ظنونا لا يفرضها الا من يعتقد عصمته من الموت ، ويكون قوله « قد خلت من قبله الرسل » على هذا الوجه استئنافا لا صـــفة •

وقصر القلب هنا أرجح،لأن المخاطبين لم يصدر عنهم ما يقتضى استبعاد موته ، بل هم ظنوه صدقا •

وعلى كلا الوجهين فقـــد نزل المخاطبون منزلة من يجهـــل قصر الموصوف على هذه الصـــفة وينكره ، فلذلك خوطبوا بطـــريق النفى والاســـتثناء •

ومنه قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير • ولا الظلمات ولا النور• ولا الظل ولا الحرور • وما يستوى الأحياء ولا الأموات• ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمســـمع من فى القبـــور • ان أنت الا نذير »(٦٤) كون الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ نذيرا معلوم

---

(٦٣) التحرير والتنوير جـ ٤ ص ١١٠ ــ ١١١ •

(٦٤) فاطر ١٩ ــ ٢٣ •

له ، فليس الخبر هنا مجهولا ، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا ينكره كونه نذيرا ، ومع ذلك جاء الخبر بالنفى والاستثناء ، وذلك لتنبيه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولفته الى أنه نذير فحسبه وليس مكلفا بسوى الانذار،وكان الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ محتاجا الى هذا التلفت لما شق على نفسه فى أمر الدعوة ، فألح وكرر، وبالغ فى ذلك حتى صار حاله وهو فى غمرة اخلاصه كأنه يملك القدرة على هدايتهم ، فنزل ــ عليه الصلاة والسلام ــ منزلة من يعتقد ذلك، أى أنه يملك مع الانذار هدايتهم ، لذا جاء الخبر بالنفى والاستثناء. قال فخر الدين الرازى : « انما جاء بالنفى والاستثناء ، لأنه لما قال: « وما أنت بمسمع من فى القبور » كأن المعنى فيه أن يقال للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ انك لا تستطيع أن تحول قلوبهم عما هى من الاباء ، ولا تملك أن توقع الايمان فى نفوسهم مع اصرارهم على كفرهم ، والأليق بهذا الخطاب أن يجعل المخاطب به بمنزلة من ظن أنه يملك ذلك ، ولا يعلم أنه ليس فى وسعه الا الانذار والتحذير ، وأخرج اللفظ مخرجه اذا كان الخطاب مع من يشك فقيل : « ان أنت الا نذير »(٦٥) .

والقصر هنا قصر اضافى ، وهو قصر افراد . قال ابن عاشور : « وجملة « ان أنت الا نذير » أفادت قصرا اضافيا بالنسبة الى معالجة تسمعهم الحق ، أى أنت نذير للمشابهين من فى القبور ، ولست

---

(٦٥) نهاية الايجاز ص ٣٦٤ .

بمدخل الايمان فى قلوبهم ، وهذا مسوق مساق المقدرة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته اذ كان مهتما من عدم ايمانهم »(٦٦) .

ومنه قوله تعالى : « ما أنتم الا بشر مثلنا » من قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون . اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون . قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون . قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين »(٦٧) .

قوله : « ما أنتم الا بشر مثلنا » المخاطبون فيه هم الرسل ، والرسل لا ينكرون بشريتهم ولا يجهلونها ، ولكن أصحاب القرية رأوا تمسك الرسل بدعوتهم ، واصرارهم عليها ، والكفار يعتقدون أن الرسول لا يكون بشرا ، لأن البشر ليسوا مؤهلين ـ من وجهة نظر الكفار ـ لمخاطبة الاله ، والتلقى عنه ، ولذا فانهم يرون الرسل بادعائهم هذا قد أخرجوا أنفسهم من دائرة البشرية ، فهم محتاجون الى من يذكرهم بها ، لذا استخدمت أداة القصر « ما وا لا » تذكيرا لهم ببشريتهم ، وتنزيلا لهم منزلة من ينكر البشرية .

أما قوله تعالى : « ان أنتم الا تكذبون » وقوله : « وما علينا الا البلاغ المبين » فطريق النفى والاستثناء . فيهما فى مكانه الأصلى .

---

(٦٦) التحرير والتنوير جـ ٢٢ ص ٢٩٦ .

(٦٧) يس من ١٣ ـ ١٧ .

لأن مضمون كل آية منهما أمر ينكره المخاطب ، فالرسل ينكرون أن يكونوا كاذبين فى دعوتهم ، كما أنهم يعتقدون أن مهمتهم هى البلاغ الواضح لمن أرسلوا اليهم ، وليس كما يتوهم الكفار من أنهم يملكون مع صفة التبليغ الزام الناس بأن يستجيبوا لدعوتهم •

وهناك مقام يستعمل فيه النفى والاستثناء مصدره المتكلم وليس المخاطب ، وذلك حينما يكون احساسه بالفكرة عميقا ، وأن معناها متقرر فى نفسه مؤكد فى ضميره ،ومنه قوله تعالى : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين »(٦٨) فسيدنا « يونس » وهو فى هذه الشدة حيث كان فى بطن الحوت نادى ربه قاصرا الألوهية عليه سبحانه وتعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا بما أحسه بانفراد الله تعالى بالتدبير ، وقدرته على كل شىء ، فالنداء فيه ضراعة متجهة الى الله سبحانه ، فلا يعقل من الآية مراعاة حال المخاطب جل جلاله، وانما هو حال المتكلم ، ولذا جاء قوله « انى كنت من الظالمين »مؤكدة بـ « ان » لبيان هذا الاحساس المتقرر فى النفس • ومنه قول دريد بن الصمة :

وما أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

فالكلام هنا ليس موجها الى مخاطب منكر ،ولا منزل منزلة المنكر، وانما هو افصاح عن شىء فى داخل المتكلم ، ذلك هو احساسه بهذا المعنى احساسا عميقا ، فالشاعر يريد أن يقول : اننى أنتمى الى رهطى،

---

(٦٨) الأنبياء ٨٧ •

وأنني مقصور على هذه القبيلة ، أفعل ما تفعله ، ان غوت غويت ، وان اهتدت اهتديت ، وهذا شيء لا ينكره أحد على الشاعر او يشك فيه ؛ لأن كون الرجل على هيئة عشيرته في طبعه وسلوكه ليس من الأمور المستغربة ، فالقصر هنا جسد حقائق نفسية عميقة مؤكدة ومقررة في ضميره وشعوره • ولا يمكن أن يقال أن الشاعر هنـا يرد على حال مخاطب ، أو توهم أن أحدا أنكر عليه هذه الحقيقة ، لأن ذلك يرفضه المعنى رفضا ، لأن المعنى لا يحتمل غير ما ذكرنا •

وهناك مقام يستعمل فيـه النفي والاستثناء لا يفسره حـال المخاطب ، ولا حال المتكلم ، وانمـا يجيء لمحض التوكيد والتقـرير ، كقوله تعالى : « اتبع ما يوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين »(٦٩) فالمخاطب هو الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو عليه الصلاة والسلام ليس منكرا ولا شاكا ، ولا هو منزل منزلة المنكر ، ولا نستطيع أن نقول أن المتكلم عميق الاحساس بالفكرة قـوى الشعور بها ، لأنه سبحانه يجل عن ذلك ، وانما النفي والاستثناء هنـا لمجرد التوكيد « وافراغ الحقيقة في قالب متين موثق لتقريرها وتوكيدها في النفوس بهذه اللهجة الحاسمة »(٧٠) •

ومنه قول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ للأنصار : « أما والله ما علمتكم الا لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » فالمخاطبون هم الأنصار ليسوا منكرين أو شاكين ، والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يقسـم ، ويستعمل النفي والاستثناء ليزيل الشك أو الانكار ، أو

---

(٦٩) الأنعام ١٠٦ •

(٧٠) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ط ثانية ص ١٠٩ •

ينزلهم منزلة ذلك ، لان ما وصفهم به حقيقة ثابتة لهم ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يبرز هذه الحقيقة فى مظهر العناية والحفاوة فأخرجها مؤكدة لتقريرها ، وتعميقها فى النفوس •

طريق انمـــا

قال البلاغيون أن دلالة (انما) على القصر دلالة وضعية ، وقد ذكروا ما يؤكدون به افادتها القصر ، فقالوا ان الأصل فى ذلك أنها متضمنة معنى (ما) و (الا) بدليل قول المفسرين فى قوله تعالى : « انما حرم عليكم الميتـــة »(٧١) بالنصب ، معنـــاه : ما حرم عليكم الا الميتة ، والمفسرون حجة فى دلالة التراكيب ، ويؤيد اصـــابتهم فى ذلك قراءة رفع (الميتـــة) وفى هـــذه القـــراءة لا تكون (ما) فى (انما) كافة ، وانما تكون موصولة ، والمعنى : ان الذى حرمه الله عليكم هو الميتة ، فجملة « حرم عليكم » صـــــلة الموصول ، والعائد محذوف ، و (الميتة) خبر ان ، والجملة ـ حينئذ ـ معرفة الطرفين ، وهذا يفيد القصر مثل قولك : المنطلق زيد ، أو زيد المنطلق(٧٢) •

كذلك استدلوا بقول النحاة أن (انما) لاثبات ما يذكر بعدها ، ونفى ما سواه ، فهى لا تثبت ما بعدها قط ، والا لما كان هناك فرق بين قولك : شوقى شاعر ، وقولك : انما شوقى شـــاعر ، لأن الجملة بدون (انما) فيها اثبات أنه شاعر ، ولكن (انما) تزيد على هذا أنها تنفى عن شوقى ما سوى صفة الشاعرية ، وهذا هو القصر •

---

(٧١) البقـرة ١٧٣

(٧٢) انظر شرح ابن يعقوب جـ ٢ ص ١٩٦ شروح التلخيص •

وكذلك استدلوا بصحة انفصال الضمير معها ، لأن الضمير المتصل لا يؤتى به منفصلا الا اذا كان محصورا فيه ، كقول عمرو بن معد يكرب :

قد علمت سلمى وجاراتهـــا ما قطـر الفـــارسى الا أنا

والضمير هنا هو الفاعل ، وليس توكيدا لضمير سابق ، لأن الفعل خال من الضمير ، وقد جاء به لغرض القصر ، وأنه ما فعل ذلك أحـــد غيره • وكقول الفرزدق :

أنا الزائد الحامى الزمـــار وانما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

فانه لما كان غرضه أن يخص نفسه بأنه المدافع فصل الضـــمير وأخره لتحمل عبارته هذا المعنى ، ولو أنه أبقى الضمير متصلا ، وقال : انما أدافع عن أحسابهم ، أو جعله متصلا وأكده فقال : انما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى لأفاد معنى آخر ، لأن المقصـــور عليه لا يكون توكيدا ولا معطوفا ، ولا نعتا ، وانما يكون جزءا مستقلا فى الجملة ، لأن التوابع تتبع المتبوعين من حيث المعنى ، وحينئذ يصير المؤخر الذى هو المقصور عليه هو قوله (عن أحسابهم ، ويفيد الكلام أنه لا يدافع الا عن أحسابهم،وليس هذا مراده وانما مراده أنه لا يدافع عن أحساب قومه أحد الا هو ، وكأنه فى مجامع الفتى الأول المنظور اليه •

هذه هى الأدلة التى ذكرها البلاغيـــون لكون دلالة (انما) على القصر دلالة وضعيـــة ، وقد ذكرهـــا الســـكاكى ، والخطيب القزوينى

والبلاغيون من بعدهما(٧٣) بيد أن بهاء الدين السبكى أضاف دليلا هو أن سياقها فى الكلام يدل على أنها تخصص شيئا بشىء وتنفيه عن غيره ، وهو دليل يعتمد على مجراها فى الكلام ، وتصرفها فى الأسلوب، يقول بعدما ذكر أن القصر بـ (انما) أثبته الجمهور ، ونفـــاه الكثير (ومنها ــ أى من أدلة افادتها القصر ــ قوله تعالى : « قل انما العلم عند الله »(٧٤) « قال انما يأتيكم به الله ان شاء »(٧٥) « قل انمـــا علمها عند ربى »(٧٦) فانه انما يحصل مطابقة الجواب اذا كانت انما للحصر ، ليكون معناها : لا آتيكم به ، انما يأتى به الله ، ولا أعلمها انما يعلمها الله(٧٧) .

فالسبكى نظر الى سياق الآيات والمقامات التى قيلت فيها فوجدها تتطلب اثباتا ونفيا ، فالآية « قل انما العلم عند الله » جاءت جوابا لقول قوم هود له حينما نهاهم عن عبادة غير الله فقالوا له ساخرين : « فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » فقال له الله « قل انما العلم عنـــد الله » فهو ــ عليه الســـلام ــ يريد أن يقول لهم بوحى من الله : ان هذا الوعيد علمه عند الله ، وليس عندى ، وقد حققت (انما) هـــذا المعنى . وسياق الآية « قال انما يأتيكم به الله ان شاء » هو أن قوم

---

(٧٣) انظر مفتاح العلوم ص ٢٩١ وشروح التلخيص جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعـــدها .

(٧٤) الأحقاف ٢٣ .

(٧٥) هود ٣٣ .

(٧٦) الأعراف ١٨٧ .

(٧٧) عروس الأفراح جـ ٢ ص ١٩٣ شروح التلخيص .

نوح قالوا له : « قد جادلتنـــا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » فكانت الاجابة منه ــ عليه السلام ــ « انما يأتيكم به الله ان شاء » أى يأتيكم به الله لا أنا ، فالجملة مع (انما) تضمنت الاثبات والنفى • أما الآية « قل انما علمها عند ربى » فجـــواب عن سؤالهم عن الساعة « أيان مرساها » فحينما سألوا هذا السؤال أوحى الله اليه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن يقول لهم : علم الساعة عنـــد ربى ، وليس عندى ، فالآية تثبت علم الساعة لله وحـــده ، وتنفيه عن غـــــيره •

والذى ذكره البلاغيون فى (انما) يرجع فى جوهره الى محور واحد هو أنها تفيد الاثبات والنفى ، وأن النفى فيها متضمن مخبوء ، فيعقل منها اثبات الفعل لشىء ونفيه عن غيره دفعة واحدة •

والبلاغيون ــ باستثناء عبـــد القاهر ــ قالوا انها تأتى لـــكل أنواع القصر ، فتـــأتى للقصر الحقيقى بقسميه ، كما تفيـــد القصر الاضـــافى بأقسامه •

أما عبد القاهر فذهب الى أنه يؤتى بها للرد على من يعتقد نفى ما أثبته بها ، قال : « اذا قلت : انما جاءنى زيد لم يكن غرضك أن تنفى أن يكون قد جاء مع زيد غيره ، ولكن أن تنفى أن يكون المجىء الذى قلت انه منه كان من عمرو ، وكذلك تكون الشبهة مرتفعة فى أن ليس ههنا جائيان وأن ليس الا جاء واحد ، وانما تكون الشـــبهة فى أن ذلك الجائى زيد أم عمرو ، فاذا قلت : انما جاءنى زيد حققت الأمر فى أنه زيد ، وكذلك لا تقول : انما جاءنى زيد حتى يكون قد بلـــغ

المخاطب أن قد جاءك جاء ، ولكنه ظن أنه عمرو مثلا فأعلمته أنه زيد »(٧٨) •

فهذا النص صريح فى أن « انما » لا تأتى الا حين يراد تصحيح معتقد ، أو ظن يذهب الى نقيض المفهوم منها • أما اذا أردت أن تصحح ظن من ظن أن الذى جاءك زيد وعمرو فالعبارة عن ذلك أن تقول : ما جاءنى الا زيد • ولا تقول : انما جاءنى زيد حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك جاء ، ولكن المخاطب ظن أنه عمرو،هكذا عند عبد القاهر •

ولم يذهب أحد من البلاغيين الى ما ذهب اليه عبد القاهر ، ولم تجد مناقشة منهم له ، وانما قرروا جميعا انها تفيد كل صور القصر •

والأصل الذى يعتمده عبد القاهر فى كون « انما » يؤتى بها للرد على من يعتقد نفى ما أثبته بها هو ما يسبق الى القلب ، قال : « ومعلوم أنك اذا قلت : انما جاءنى زيد ولم ترد على أنه لا يسبق الى القلب من المعنى الا ما قدمنا شرحه من أنك أردت النص على زيد أنه الجائى ، وأن يبطل ظن المخاطب أن المجىء لم يكن منه ، ولكن كان من عمرو حسب ما يكون اذا قلت : جاءنى زيد لا عمرو »(٧٩) •

---

(٧٨) دلائل الاعجاز ص ٣٢١ تعليق د/ خفاجى

(٧٩) المصدر السابق نفس الصفحة •

ولكن السبق الى القلب الذى يعتمد عليه عبد القاهر كثيرا فى تحليلاته ، والمدلولات التى يستشفها ليس أصلا ثابتا ، فقد يسبق الى شخص ولم يسبق الى آخر بدليل أنه سبق اليه ، ولم يسبق الى السكاكى والخطيب القزوينى وشراح التلخيص ، لأنهم أجمعوا على أن « انما » تأتى لكل طرق القصر ، ولأن هذا السبق يهتز بعوامل مختلفة تعتور القلب ، لذا لا نستطيع أن نقول عليه فى كل حال ، فمثلا لا ندس بما يقوله من سبق الى القلب حينما نسمع أو نقرأ انما جاءنى زيد ، وكل ما نفهمه أن التعبير قصر المجىء على زيد ، وقد يكون ذلك اعلاما أوليا ، وقد يكون دفعا لمن ظن أن زيدا وعمرا جاء .

هذا ، والنصوص العربية ، والآيات القرآنية لا تؤيد رأيه ، فمثلا قوله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء »(٨٠) هل يمكن أن يقال جاءت ردا على من اعتقد أن غير العلماء يخشون الله ، وأن العلماء لا يخشون الله؟ وقوله:«انما يستجيب الذين يسمعون»(٨١) هل يمكن أن يكون ردا على من اعتقد أن المجيب هو الأصم ، وأن الذى لا يسمع لا يجيب ؟ وهل يمكن أن نقول ان قول المتنبى لكافور « انما أنت والد » فى قوله(٨٢) :

انما أنت والد والأب انقا طع أدنى من واصل الأولاد

---

(٨٠) فاطر ٢٨ .

(٨١) الأنعام ٣٦ .

(٨٢) انظر البيت فى حاشية الدسوقى جـ ٢ ص ٢٢٠ شروح التلخيص

جاء ردا على من اعتقد أن غير كافور بمنزلة الوالد بخلاف كافور ؟ الى غير ذلك من الشواهد الكثيرة .

والمقصور عليه مع « انما » هو المؤخذ ، وهو الجزء المستقل فى الجملة مبتدأ أو خبرا أو فاعلا أو مفعولا أو ظرفا أو حالا ، فالنعت لا يقع مقصورا عليه ، لأنه ليس جزءا مستقلا ، بل يقع المتبوع مع تابعه . قال عبد القاهر : « تقول انما هذا لك فيكون الاختصاص فى « لك » بدلالة انك تقول : انما هذا لك لا لغيرك . وتقول : انما لك هذا فيكون الاختصاص فى « هذا » بدلالة انك تقول : انما لك هذا لا ذاك ، والاختصاص يكون أبدا فى الذى اذا جئت بـ « لا » العاطفة كان العطف عليه »(٨٣) . وفى موضع آخر يقول : « واذ قد عرفت أن الاختصاص مع « الا » يقع فى الذى تؤخر من الفاعل والمفعول فكذلك يقع مع « انما » فى المؤخر منهما دون المقدم ، فاذا قلت : انما ضرب زيدا عمرو كان الاختصاص فى الضارب ، واذا قلت : انما ضرب عمرو زيدا كان الاختصاص فى المضروب »(٨٤) .

واذا اجتمع مع « انما » تقديم ، فالأكثر الناء دلالة التقديم اذا كان المقدم هو الخبر ، كما فى قوله تعالى : « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب »(٨٥) فالاختصاص — فى الجملة الأولى — فى المبتدأ ، يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : « فما يجب عليك الا تبليغ الرسالة فحسب »(٨٦) فقد أوقع التبليغ الذى فسر به

---

(٨٣) دلائل الاعجاز ص ٣٢٦ تعليق د/ خفاجى .

(٨٤) المصدر السابق ص ٣٢٤ .

(٨٥) الرعد ٤٠ .

(٨٦) الكشاف جـ ٢ ص ٥١٣ .

« البلاغ » بعد « الا » التى يقع بعدها المقصور عليه • ويقول عبد القاهر فى هذه الآية : « ترى الأمر ظاهرا أن الاختصاص فى الآية الأولى « انما عليك البلاغ » فى المبتدأ الذى هو البلاغ » •

أما اذا كان المقدم هو المفعول فالاختصاص يكون فيه ، وتلغى دلالة « انما » على القصر ، كقولك : انما زيدا أكرمت ، أى ما أكرمت الا زيدا ، فالذى أفاد القصر هو التقديم هنا ، وليس انما • يقول الدسوقى : « ومحل تأخير المقصور عليه فى انما حيث استفيد القصر منها فقط ، ولم يعرض عارض لتقديمه ، وانما قيدنا بقولنا حيث يستفاد منها القصر فقط احترازا من نحو قولك : انما زيدا ضربت ، فانه لقصر الضرب على زيد ، فقد تقدم المقصور عليه على المقصور مع انما ، لأنها غير مفيدة للقصر ، بل المفيد هنا التقديم »(٨٧) وزيد هنا مفعول به •

ولما كان النفى فى « انما » خافتا مخبوءا ، ليس له من الجهارة ومن القوة ما للنفى فى « ما » و « لا » جاز أن تجامع « لا » العاطفة ، لأن النفى مع انما ليس نفيا صريحا • يقول السكاكى : « والطريق الأول ــ يقصد العطف بـ « لا » ــ لا يجامع الثانى ــ يقصد النفى والاستثناء ــ فلا يصح : ما زيد الا قائم لا قاعد .... ويجامع الطريقين الأخيرين ــ يقصد انما والتقديم ــ فيقال : انما أنا تميمى لا قيسى ، وتميمى أنا لا قيسى »(٨٨) ومجامعة « لا »

---

(٨٧) حاشية الدسوقى ج ٢ ص ٢٣٢ شروح التلخيص •

(٨٨) المفتاح ص ٢٩٣ •

العاطفة بـ « انما » مشروط بأن لا يكون الوصف الذى أريد حصره فى الموصوف مختصا بذلك الموصوف ، فان كان مختصا فلا يجىء النفى بـ « لا » العاطفة مع « انما » كما فى قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون »(٨٩) فيمتنع أن يقال لا الذين لا يسمعون، أو لا الأصم ، لأن الاستجابة لا تكون الا من سامع دون من لا يسمع، فالتأكيد بالنفى غير مفيد ، ومن ذلك قوله تعالى : « انما أنت منذر من يخشاها »(٩٠) فلا يخفى على أحد أن الانذار انما يكون انذارا ويكون له تأثير اذا كان مع من يؤمن بالله وبالبعث والقيامة ، وأهوالها ، ويخشى عقابها »(٩١) •

فمجامعة « لا » العاطفة بـ « انما » مشروط بأن لا يكون الوصف مختصا بالموصوف ، فاذا كان الوصف غير مختص بالموصوف واجتمعا فيكون الحصر حينئذ لـ «انما» والعطف بـ «لا» تأكيد ، ولا ينسب له الحصر لتبعيته(٩٢) •

وعبد القاهر الجرجانى وصف مجامعة « لا » العاطفة مع «انما» فى الوصف المختص بالموصوف بأنها غير حسنة ، وأن ذلك يحسن فى غيره • قال : « ومما يجب أن يعلم أنه اذا كان الفعل بعدها فعلا

---

(٨٩) الأنعام ٣٦ •

(٩٠) النازعات ٤٥ •

(٩١) مفتاح العلوم ص ٣٩٤ •

(٩٢) حاشية الدسوقى جـ ٢ ص ٢١٠ شروح التلخيص •

لا يصح الا من المذكور ، ولا يكون من غيره كالتذكر الذى يعلم أنه لا يكون الا من أولى الألباب لم يحسن العطف بـ « لا » فيه كما يحسن فيما لا يختص بالمذكور ويصح مع غيره »(٩٣) وهذا أقرب الى الصواب مما قاله السكاكى وهو المنع « لأنه لا دليل على امتناع أن يقال : انما يفهم العاقل لا غيره عند قصد التأكيد »(٩٤) •

وعند اجتماع « لا » العاطفة بـ « انما » تارة تتأخر « لا » وتارة تتقدم • قال عبد القاهر : « ثم ان النفى فيما يجىء فيه النفى يتقدم تارة ويتأخر أخرى ، فمثال التأخير ما تراه فى قولك : انما يجىء زيد لا عمرو »(٩٥) •

مقامات انما :

قال البلاغيون انها تأتى للأمر الذى لا يجهله المخاطب ولا ينكره، أو لما ينزل هذه المنزلة • قال عبد القاهر : « اعلم أن موضوع «انما» على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة ، تفسير ذلك أنك تقول للرجل : انما هو أخوك ، وانما هو صاحبك القديم ، لا تقوله لمن يجهل ذلك ، ويدفع صحته ، ولكن ان يعلمه ويقربه الا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب »(٩٦) •

---

(٩٣) دلائل الاعجاز ص ٣٣٢ •
(٩٤) شرح ابن يعقوب جـ ٢ ص ٢١٣ شروح التلخيص •
(٩٥) دلائل الاعجاز ص ٣٣٢ •
(٩٦) دلائل الاعجاز ص ٣١٥ ـ ٣١٦ •

ويقول السكاكى : « وطريق « انما » يسلك مع مخـاطب فى مقام لا يصر على خطئه ، أو يجب عليه أن لا يصر على خطئـه ... والأصل فى « انما » أن تستعمل فى حكم لا يعوزك تحقيقه،اما لأنه فى نفس الأمر جلى ، أو لأنك تدعيه جليا »(٩٧) .

فالمقام الذى ترد فيه مقام الأخبار اللاتى تحمل معانى مأنوسة قريبة من النفـوس ، هذا هو الأصـل ، واذا دخلت على الحقـائق الغريبة ، والقضايا المجهولة لتكون قد نزلت منزلة المأنوسة القريبة من النفوس ، وأحيانا تأتى لمحض التوكيد .

فمن الأخبار اللاتى لا يجهلها المخاطب ، ولا ينكرها قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون »(٩٨) وقوله تعالى : « انما تنـذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب »(٩٩) وقوله تعالى : « انمـا أنت منذر من يخشاها »(١٠٠) كل ذلك تذكير بأمر معلوم ، لأن كل واحد يعلم أنه لا يستجيب الا من يعلم ويسـمع ما يقال له . وكذلك الانذار لا يؤثر الا فيمن يؤمن بالله ويخشى عقـابه . ومنه قـوله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء »(١٠١) فكون خشـية

---

(٩٧) مفتاح العلوم ص ٢٩٥ .
(٩٨) الأنعـام ٣٦ .
(٩٩) يسين ١١ .
(١٠٠) النازعات ٤٥ .
(١٠١) فاطـر ٢٨ .

الله مقصورة على العلماء أمر لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع صحته ، ومن الشعر قول المتنبى :

انما تنجح المقالة فى المر ء اذا صادفت هوى فى الفؤاد

يريد الشاعر أن يقول : انما يبلغ القول النجاح اذا سمعه من يوافق هواه ذلك القول وهذا المعنى واضح ، فان الناس جميعا يعرفون أن المقالة تؤثر حين تصادف هوى عند مسامعها ، فهذا المعنى مألوس قريب الى النفوس .

ويذكر عبد القاهر أن أحسن مواقعها التعريض قال : « ثم اعلم أنك اذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون ، وأعلق ما ترى بالقلب اذا كان الايراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه»(١٠٢) ندو قوله تعالى : « انما يتذكر أولوا الألباب »(١٠٣) والتعريض كما قال الدسوقى « هو استعمال الكلام فى معناه ملوحا به الى غيره أى ليفهم منه معنى آخر »(١٠٤) .

وهذا يعنى أن المعنى المباشر الذى بعدها ليس هو المراد ، وانما المراد هو معنى يتولد بمزاوجة ما دخلت عليه بالسياق ، وتفاعلهما فى احكام واتساق ، فالمعنى المباشر للآية السابقة أن أولى الألباب يتذكرون ، وأنه لا يتذكر غيرهم ، وليس هذا المعنى هو المقصود،وانما

---

(١٠٢) دلائل الاعجاز ص ٣٣٣ تعليق د/ الخفاجى .

(١٠٣) الرعد ١٩ والزمر ٩ .

(١٠٤) حاشية الدسوقى جـ ٢ ص ٢٢٣ شروح التلخيص .

المقصود مقتضى هذا المعنى • بيان ذلك : أن المعنى المباشر وهو تذكر أولى الألباب ثابت لهم ، ومنفى عن غيرهم وهذا يعنى أن غير أولى الألباب لا يتذكرون ، وهذا يقودنا الى أن هناك طائفة رفضت التفكير فيما عرض عليها من قضية الايمان بالله ، ولم تناقشها مناقشة معقولة تنتهى بها الى القبول أو الرفض ، وهذا المقتضى يذم الكفار ، وانهم من فرط العناد ، ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل ، وانكم ان طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب »(١٠٥) •

وكذلك قوله تعالى : « انما أنت منذر من يخشاها »(١٠٦) وقوله : « انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب »(١٠٧) « المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل ، فالانذار معه كلا انذار »(١٠٨) ومن الشعر قول العباس بن الأحنف :

أنا لم أرزق محبتها انما للعبد ما رزقا

فقوله : « انما للعبد ما رزقا » من المعانى البديهية ، فالكل يعلم أن ليس للعبد الا ما رزقه الله ، وهذا يشعر أن الله لم يرزق الشاعر محبتها ، وهذا يقتضى قطع الطمع من وصلها ، وأخذ النفس على سبيل اليأس ، وتعويدها على النسيان •

---

(١٠٥) دلائل الاعجاز ص ٣٣٣ •

(١٠٦) النازعات ٤٥ •

(١٠٧) يسين ١١ •

(١٠٨) دلائل الاعجاز ص ٣٣٤ •

ومرجع معنى التعريض تأملّ النص ، وتذوق معناه ، والتعرف على مرمى المعنى مع استقصاء السياق ، وهذا يحتاج الى جهد جهيد وكد كديد ، فليس كلّ أسلوب اشتمل على « انما » فيه تعريض،فمثلا لانجده فى قوله تعالى : « انما السبيلّ على الذين يستأذنوك »(١٠٩) وقوله : « قل انمـا أنا بشر مثلكم »(١١٠) ولا فى قولّ الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « انما أنا قاسم والله معط » ونجـده فى قوله تعـالى : « انما يسـتجيب الذين يسـمعون »(١١١) ، والمعنى التعريضى فى الآية يتولد هكذا : قصر الاستجابة على من يسمع ، وهؤلاء لم يستجيبوا اذن هم لم يسمعوا ، ومعنى عدم سماعهم أنهم فقدوا أهلية السماع •

قلنا ان البلاغيين قالوا ان « انما » تأتى للأمر الذى لا يجهلـه المخاطب ولا ينكره ، أو للأمر الذى ينزل هذه المنزلة ، وطبقنا شواهد على الأمر الذى لا يجهلّ ولا ينكر •

أما الأمر الذى ينزل هـذه المنزلة فيـدل على قـوة دلالتها على أن ما تدخـل عليـه يكون مأنوسـا قريبـا من النفس ، فلو قرت هذا المعنى فيهـا تفيض على الشىء الغريب الغير مأنوس فتصيره مأنوسا ، وقد أشار عبد القاهر الى ذلك بقوله : « ومما يجب لك أن تجعله على ذكر منك من معانى « انما » ما عرفتك أولا من أنها

---

(١٠٩) التوبة ٩٣ •

(١١٠) آية ١١٠ •

(١١١) الأنعـام ٣٦ •

قد تدخل فى الشىء على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم ، ويدعى أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع »(١١٢) ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن اليهود : « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون »(١١٣) دخلت « انما » لتدل على أنهم حين ادعوا لأنفسهم انهم مصلحون أظهروا أنهم يدعون من ذلك أمرا ظاهرا معلوما ، ولذلك أكد الأمر فى تكذيبهم ، والرد عليهم ، فجمع بين « ألا » التى هى للتنبيه وبين « ان » التى هى للتأكيد ، وضمير الفصل « هم » واسمية الجملة ، فقيل « ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

ومنه قول عبد الله بن قيس الرقيات :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

قال عبد القاهر : « ادعى فى كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء اذا مدحوا أن يدعوا فى الأوصاف التى يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم ، وأنهم قد شهروا بها ، وأنهم لم يصفوا الا بالمعلوم الظاهر الذى لا يدفعه أحد »(١١٤) .

فالشاعر لم يلتفت الى حال النفوس المتلقية لها فيواجهها كما يقتضى واقعها ، وانما خيل وأوهم أنها ينبغى أن تكون من المسلمات.

---

(١١٢) الدلائل ص ٣٣٥ .

(١١٣) البقرة ١١ .

(١١٤) الدلائل ص ٣١٦ .

ولو قال : ما هو الا شهاب لا نجد هذا المعنى الذى يقصده ، وهى أن هذه الصفة كأنها ثابتة فيه ولاصقة وواضحة ، فلا وجه لانكارها .

ومنه قول قيس بن حصن الفزارى :

ألا أيها الناهى فزارة بعدما أجدت لغزو انما أنت حالم

« انما » هنا تخيل شيوع الاعتقاد فى هذه القبيلة من يأس وبطش وصرامة عزيمة ، وأنها اذا شدت الحرب لا يكفها نهى ، وأن الناس عرفوا فيها صحة العزيمة ، وصدق الاقدام ، وفرط القوة والاعتداد ، فمن أراد أن يكفها عن الغزو فهو بعيد عن الواقع ، وأن ذلك شائع معروف لشيوع بأسها وشدة شكيمتها .

وأحيانا تأتى « انما » لمحض التوكيد ، وذلك اذا اجتمع معها طريق التقديم ، وأن يكون المقدم مفعولا ، فتقديم المفعول معها يلغى دلالتها على القصر ، وحينئذ تتمحض للتوكيد ، كقولك : انما زيدا أكرمت ، أى ما أكرمت الا زيدا ، وانما هذا فعلت ، أى ما فعلت الا هذا ، وكقول المتنبى يمدح عضد الدولة :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها
ومن منـاياهم براحته يأمرها فيهم وينهاها
أباشجاع بفارس عضد الدو لة فناخسرو شهنشاها
أساميا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها

فاللذة مقصور عليه ، وهو مقدم ، و «انما » أفادت هنا التأكيد من غير قصر ، لأنه يريد أن يقول : أساميا لم تزده معرفة،وما ذكرناها الا لذة ومتاعا .

ط-رق التقديم :

الغرض من الكلام التعبير عما فى الفكر ، ومشاعر النفس وأحاسيسها بألفاظ دالة على ما يريد المتكلم التعبير عنه والمتكلم يرتب عبارته ، وينسقها حسب ما يحسه ، وما يختلجه من فكر .

والتقديم مظهر من مظاهر قدرة المتكلم التعبيرية ، فيه يبرز ألوان أحاسيسه تجاه الشيء المعبر عنه ، لأن موقع الكلمات من الجملة عظيمة المرونة ، وأى تغيير فيها بالتقديم أو التأخير يحدث تغيرات جوهرية فى تشكيل المعانى ، وألوان الحس ، والتقديم له فى النفوس حسن موقع ، وعذوبة مذاق . يقول عبد القاهر الجرجانى عنه : « هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضى بك الى لطيفة ، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن ما راقك ، وأطف عندك أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان الى مكان »(١١٥) .

والتقديم له أسرار كثيرة ، ودلالات متنوعة ، والذى يعنينا فى دراستنا هنا هو دلالته على القصر .

وصور التقديم التى تفيد القصر فى الأكثر والتى سنتناولها هى:

١ — تقديم المعمول من المفعول وشبهه على عامله .

---

(١١٥) دلائل الاعجاز ص ١٣٧ تعليق د/ا خفاجى .

٢ ــ تقديم المسند اليه •

٣ ــ تقديم المسند •

أولا : تقديم المعمول من المفعول وشبهه على عامله :

التقديم هنا اما أن يكون فى الخبر المثبت ، واما أن يكون فى الخبر المنفى • فاذا كان فى الخبر المثبت فظاهر كلام البلاغيين فيه يدل على أنه يفيد الاختصاص غالبا ، اذا قلت : زيدا أكرمت ، فانك تقصر كرمك على زيد • يقول السكاكى : « وأما الحالة المقتضية للنوع الثانى ــ يقصد تقديم المفعول وشبهه على عامله ــ أن يكون هناك من اعتقد أنك عرفت انسانا وأصاب لكن أخطأ ، فاعتقد ذلك الانسان غير زيد ، وأنت تقصد رده الى الصواب ، فتقول : زيدا عرفت•واذا قصدت التأكيد والتقرير قلت : زيدا عرفت لاغيره»(١١٦) ثم يقول : « والتخصيص لازم للتقديم » ويقول الخطيب القزوينى : « وأما تقديم مفعوله ونحوه عليه ــ يقصد على الفعل ــ فلرد الخطأ فى التعيين ، كقولك : زيدا عرفت لمن اعتقد أنك عرفت انسانا ، وأنه غير زيد ، وأصاب فى الأول دون الثانى ، وتقول لتأكيده وتقريره : زيدا عرفت لا غيره » (١١٧) ثم يقول : « والتخصيص فى غالب الأمر لازم للتقديم » •

ومن شواهد هذا النوع قوله تعالى : « اياك نعبد واياك

---

(١١٦) مفتاح العلوم ص ٢٣٣ •

(١١٧) الايضاح

نستعين »(١١٨) أى نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين بغيرك ، ومنه قوله : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة »(١١٩) أى أن هذه الوجوه لا تنظر الا الى ربها.ومنه قوله : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »(١٢٠) فان المراد ههنا بتقديم المفعول لتخصيصه بالعبادة . ومنه قوله : « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون »(١٢١) أى تحشرون الى الله لا الى غيره ومنه قوله : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون»(١٢٢) أى ترجعون الى الله لا الى غيره.وغير ذلك كثيرا جدا.

ومن الشواهد التى لا تدل على القصر من هذا النوع من التقديم قوله تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون »(١٢٣) يقول ابن عاشور : « وتقديم « منه » على « يأكلون » للاهتمام تنبيها على النعمة ، ولرعاية الفاصلة »(١٢٤) ولا وجه للحصر فيها ، لأن الحصر يقتضى أنهم لا يأكلون الا منه ، وليس الأمر كذلك لأنهم يأكلون من غيره . وقال الزمخشرى : « وقوله « فمنه يأكلون » بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشىء الذى يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الانس »(١٢٥).

---

(١١٨) الفاتحة ٥ .

(١١٩) القيامة ٢٢ ، ٢٣ .

(١٢٠) الزمر ٦٦ .

(١٢١) آل عمران ١٥٨ .

(١٢٢) الجاثية ١٥ .

(١٢٣) يس ٣٣ .

(١٢٤) التحرير والتنوير جـ ٢٣ ص ١٣ .

(١٢٥) الكشاف جـ ٤ ص ١٤ .

ومنه قوله تعالى : « والأنعـام خلقها لكم فيها دفء ومنـافع ومنها تأكلون »(١٢٦) قال ابن عاشور : « وتقديم المجرور فى قوله تعـالى : « ومنها تأكلون » للاهتمـام لأنهم شديد الرغبـة فى أكل اللحوم ، ولرعاية على الفاصلة »(١٢٧) .

أما اذا كان تقديم المفعول وشبهه على عامله فى الخبر المنفى فظاهر كلام عبد القاهر ومن تبعه أنه يدل على القصر قطعا. قال عبد القاهر: « فاذا قلت : ما ضربت زيدا ، فقدمت الفعل كان المعنى أنك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ... واذا قلت : ما زيدا ضربت فقدمت المفعول كان المعنى على أن ضربا وقع منك على انسان ، وظن أن ذلك الانسان زيد فنفيت أن يكون اياه ، فلك أن تقول فى الوجـه الأول : ما ضربت زيدا ولا أحدا من الناس ، وليس لك فى الوجـه الثـانى ، فلـو قـلت : ما زيدا ضربت ولا أحـدا من النـاس كان فاسدا .. »(١٢٨) ثم أخذ يوضح الفرق بين الوجهين ، فيصح أن تقول : ما ضربت زيدا ولكنى أكرمته ، فتعقب الفعل المنفى باثبـات فعل هو ضده ، ولا يصح أن تقول : ما زيدا ضربت ولكنى أكرمته ، وذلك أنك لم ترد أن تقول : لم يكن الفعل هذا ولـكن ذاك ، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ولكن ذاك، فالواجب اذن أن تقول: ما زيدا ضربت ولكن عمرا . ثم يقول : « وحكم انجـار والمجرور فى جميـع ما ذكرنا حكم المنصوب ، فاذا قلت : ما أمرتك بهـذا كان المعنى على

---

(١٢٦) النحل ٥ .

(١٢٧) التحرير والتنوير جـ ١٤ ص ١٠٥ .

(١٢٨) دلائل الاعجاز ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

نفى أن تكون قد أمرته بذلك ، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر ، واذا قلت : ما بهذا أمرتك كنت قد أمرته بشيء غيره »(١٢٩).

وما قاله عبد القاهر من أن تقديم المعمول من المفعول وشبهه على عامله فى الخبر المنفى يفيد القصر قطعا ليس مطردا ، لأن هناك نصوصا جاء فيها هذا النوع ولم يفد القصر ، فمثلا تقديم « ولا أنفسهم » على « ينصرون » فى قوله تعالى : « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون • ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون »(١٣٠) لا يفيد القصر ، وانما ليفيد الاهتمام، يقول ابن عاشور : « وتقديم المفعول فى « ولا أنفسهم ينصرون » للاهتمام بنفى هذا النصر عنهم ، لأنه أدل على عجز تلك الآلهة ، لأن من يقصر فى نصر غيره لا يقصر فى نصر نفسه لو قدر »(١٣١).

ومنه قوله تعالى : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون »(١٣٢) فتقديم « ولا أنفسهم » على « ينصرون » لا يفيد القصر ، وانما يفيد الاهتمام كالآية السابقة . ولو طبقنا نظرية عبد القاهر فى هذا النوع من التقديم لقلنا : ان الفعل ثابت ، وأن الخطأ فى المفعول ، وهذا يعنى أن الآلهة التى اتخذوها لا تنصر نفسها ، وانما تنصر غيرها ، وهذا لا يقره عقل ،

---

(١٢٩) المصدر السابق ص ١٥٦ .
(١٣٠) الأعراف ١٩١ ، ١٩٢ .
(١٣١) التحرير والتنوير جـ ٩ ص ٢١٧ .
(١٣٢) الأعراف : ١٩٧ .

لأن النصر من هذه الآلهة ليس موجودا أصلا ، فالفعل غير ثابت وهى لا تنصر نفسها ولا من يعبدها .

ثانيا : تقديم المسند اليه :

تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى اهتم به عبد القاهر والبلاغيون ، وفصلوا القول فيه ، فذكروا أن المسند اليه اذا تقدم عليه حرف نفى مثل : ما أنا فعلت أفاد القصر قطعا ، سواء أكان المسند اليه ضميرا ، أو معرفة ظاهرة أو نكرة ، لأن الفعل ثابت ، ونفيه عن المتقدم يوجب ثبوته لغيره ، لاستحالة أن يصدر الفعل من غير فاعل(١٣٣) .

واثبات الفعل للغير يكون على حسب ما نفى عن المتقدم من العموم والخصوص . والمقصور عليه هو المتقدم ، والمقصور نفى الفعل المذكور . والقصر هنا نص على النفى على غير المألوف فى طريق التقديم ، والاثبات الذى هو الوجه الثانى من جملة القصر مفهوم ضمنا .

ولكون التقديم مع موالاة حرف النفى يفيد التخصيص بمعنى نفى الحكم عن المذكور وثبوته للغير على وجه العموم والخصوص لم يصح أن يقال : ما أنا قلت هذا ولا غيرى ، لأن مفهوم « ما أنا قلت » ثبوت قائليه هذا القول لغير المتكلم ، ومنطوق « ولا غيرى »

---

(١٣٣) انظر دلائل الاعجاز ص ٥٠٤ وما بعدها وشروح التلخيص جـ ١ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨ .

نفيها عنه وهما متناقضـــان • ولا يصـــح : ما أنا رأيت أحدا ، لأنه يقتضى أن يكون انسان غير المتكلم ــ أى كل أحد من الناس ، لأنه قد نفى عن المسند اليه الرؤية على وجه العموم فى المفعـــول فيجب أن يثبت لغيره على وجه العموم فى المفعول ليتحقق تخصيص المسند اليه بهذا النفى • ولا يصح : ما أنا ضربت الا زيدا ، لأنه يقتضى أن انسانا غير المسند اليه قد ضرب كل أحد سوى زيد ، لأن المستثنى منه مقدر عام ، وكل ما تنفيـــه عن المذكور على وجه الحصر يجب ثبوته لغيره تحقيقا لمعنى الحصر ان عاما فعام ، وان خاصا فخاص •

وبعضهم ذهب الى أن النكرة فى سياق النفى قد تفيد العمـــوم العرفى ، فاذا قلت : ما أنا رأيت أحدا ، كان العموم فى « أحد » عموما عرفيا يحدده السياق ، وليس العموم الذى يستغرق كل أحد ، فلفظ « أحد » هنا يراد به الأحد الذى يمكن رؤيته(١٣٤) •

والسكاكى يشترط لافادة القصر فيما اذا كان المسند اليه ضميرا ولى حرف النفى جواز تأخير المسند اليه على أنه فاعل فى المعنى فقط، مقدر التقديم عن تأخـــير(١٣٥) أما اذا كان المســـند اليه الذى ولى حرف النفى اسما ظاهرا معرفة فلا يفيـــد عنده القصر ، بل يفيـــد التقـــوى فقط(١٣٦) •

---

(١٣٤) انظر حاشية الدسوقى جـ ١ ص ٣٩٧ شروح التلخيص •

(١٣٥) انظر مفتاح العلوم ص ٢٢١ ، ٢٢٢ •

(١٣٦) المصدر السابق ص ٢٢٣ وحاشية الدسوقى جـ ١ ص ٤٠٦ شروح التلخيص •

وبالتأمل فيما ورد فى القرآن الكريم من هذا الطريق ـ طريق تقديم المسند اليه الذى ولى حرف النفى على الخبر الفعلى ـ وما قاله المفسرون نجد أن بعضه يفيد القصر ، وبعضه لا يستقيم معه القصر ، فمن الآيات التى تفيد القصر قوله تعالى : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين • واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون »(١٣٧) •

قوله « ولا هم ينصرون » يفيد أنهم خصوصا لا ينصرون فى هذا اليوم ، وأن الرحمة لا تنالهم بينما تغمر من اتقوا وعملوا الناء هذا اليوم • ومثله قوله : « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين • واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون »(١٣٨) • ومنه قوله تعالى : « ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين • يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون»(١٣٩)•

ومن الآيات اللاتى لا تحتمل القصر قوله تعالى : « وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون »(١٤٠) قال الطاهر بن عاشور « وتقديم المسند اليه على المسند الفعلى فى قوله : «ولا هم ينقذون»

---

(١٣٧) البقرة آية ٤٧ ، ٤٨ •

(١٣٨) البقرة ٨٦ •

(١٣٩) الدخان : ٤٠ ، ٤١ •

(١٤٠) يسين ٤٣ •

لافادة تقوى الحكم ، وهو نفى انقاذ أحـد اياهم »(١٤١) وهذا ما يفهم من الآية ، لأن معناها : ان أراد الله تعالى اغراقهم فلا يجدون من يستصرخون به وهم فى لجج البحر ، ولا ينقذهم أحد من الغرق. وليس فى مفهومها اثبات ونفى كما فى جملة القصر .

ومنه قوله تعالى : « لو يعلم الذين كفروا حـين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هـم ينصرون . بل تأتيهم بغتـة فتبهتهم فلا يستطيعون ردهـا ولا هم ينظرون »(١٤٢) وهنا فيـه تقديمان . الأول يفيـد القصر وهو « ولا هم ينصرون » لأن المعنى أن عدم النصرة فى هذا اليوم مقصور عليهم ، بخلاف العصاة من الذين آمنوا فقد ينصرهم الله برحمته ، فيغفر لهم . والثانى فى قوله تعالى « ولا هم ينظرون » وهذا يفيد التقوى سواء أكان المراد بـ « تأتيهم بغتة » السـاعة والقيامة أو النفخـة ، أو العذاب الذى توعدهم الله به(١٤٣) واستعجلوه متهكمين بقولهم : « متى هـذا الوعد » ، لأن تلك الأشياء لا تمهل أحدا ، فليسوا وحدهم المختصين بعدم الانتظار.

هذا ، وتقديم المسند اليه المسبوق بحرف النفى على الخبر المشتق لا يفيد القصر عند السكاكى والخطيب وانما يفيد التقوى قال السكاكى: « ويقرب من قبيل : أنا عرفت ، وأنت عرفت ، وهو عرف ، فى اعتبار تقوى الحكم : زيد عارف ، وانما قلت يقرب ، دون أن أقول نظـيره ،

---

(١٤١) التحرير والتنوير جـ ٢٣ ص ٢٩ .

(١٤٢) الأنبياء ٣٩ ، ٤٠ .

(١٤٣) التحرير والتنوير جـ ١٧ ص ٧٢ .

لأنه لما لم يتفاوت فى الحكاية والخطاب والغيبة فى : أنا عارف ، وأنت عارف ، وهو عارف أشبه الخالى عن الضمير ، ولذلك لم يحكم على عارف بأنه جملة ..»(١٤٤) .

ويقول الخطيب : « لا نسلم أن ايلاء الضمير حرف النفى اذا لم يكن الخبر فعليا يفيد الحصر »(١٤٥) .

ويفهم من تمثيل بهاء الدين السبكى أن هذا النوع يفيد القصر ، قال : « ومنه — أى ومن تقديم المسند اليه الذى تقدمه حرف النفى — فى اسم الفاعل قوله تعالى : « وما أنت علينا بعزيز »(١٤٦) وفى الفعل قول النبى — صلى الله عليه وسلم — « ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم »(١٤٧) .

وقد ذكر الزمخشرى فى كشافه أن التقديم فى الآية السابقة يفيد القصر قال(١٤٨) : « وقد دل ايلاء ضميره حرف النفى على أن الكلام واقع فى الفاعل ، لا فى الفعل ، كأنه قيل : « وما أنت علينا بعزيز » بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال فى جوابهم : «أرهطى أعز عليكم من الله » .

---

(١٤٤) مفتاح العلوم ص ٢٢٢ .
(١٤٥) الايضاح
(١٤٦) هود ٩١ .
(١٤٧) عروس الأفراح جـ ١ ص ٤٠٠ شروح التلخيص .
(١٤٨) جـ ٢ ص ٤٠٨ دار الكتب العلمية .

ولكن هذا التركيب لا يفيد القصر الا بالقرائن ، فمثلا قوله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور »(١٤٩) •

نفهم منها القصر ، والقرينة المعينة على هذا الفهم قوله قبل هذه الآية : « ان الله يسمع من يشاء » فالآية « وما أنت بمسمع من فى القبور » يفهم منها بمعاونة هذه القرينة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليس قادرا على اسماعهم على الرغم من محاولاته الدائمة ، وحرصه على هدايتهم ، وانما الذى يقدر على ذلك هو الله •

أما قوله تعالى : « وما أنت بنعمة ربك بمجنون »(١٥٠) فلا يفيد القصر ، فالمقام والسياق يدلان على أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد نفى هذا الزيف الذى زعموه ، وما أردفه سبحانه وتعالى من آيات بعد هذه الآية يدل على ذلك ، فقد أبان فيها منزلته عند الله ، وأشار الى سمو نفسه ، وعظمة خلقه ، وأهليته لنعمة النبوة •

وأما تقديم المسند اليه اذا لم يل حرف النفى على الخبر الفعلى كقولك : أنا فعلت كذا فان الكلام صالح لافادة القصر للرد على من زعم انفراد غيره به ، أو مشاركته فيه ، وعند تأكيد الأول يقال:لاغيرى وفى تأكيد الثانى يقال : وحدى(١٥١) • ويمكن أن يكون هذا النوع مفيدا للتقوى والقرائن هى المعينة على ما اذا كان مفيدا للقصر

---

(١٤٩) فاطر ٢٢ •

(١٥٠) القلم ٢ •

(١٥١) انظر دلائل الاعجاز ص ١٥٠ ومفتاح العلوم ص ٢٣٢ — ٢٣٣ وشروح التلخيص جـ ١ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ •

أو الاقوية • ويستثنى السكاكى من هذه الصورة المسند اليه اذا كان اسما ظاهرا معرفة ، فعنده لا يفيد الا التقوى • أما اذا كان نكرة فالأسلوب يفيد القصر عنده ، واذا كان ضميرا يحتمل الوجهين •

واذا كان المسند اليه مثبتا والخبر الفعلى منفيا مثل : أنت لا تكذب ، ويحتمل الوجهين أيضا كالخبر الفعلى المثبت(١٥٢) وهو أبلغ من لا تكذب ، أو لا تكذب أنت لما فيه من تكرر الاسناد •

ومن الشواهد التى تفيد القصر والخبر الفعلى مثبت قوله تعالى: « وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون • فلما جاء سليمان قال اتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون »(١٥٣) قدم المسند اليه (أنتم) على المسند « تفرحون » مع تقديم المعمول « بهديتكم » على عامله « تفرحون » لافادة القصر ، والمعنى : أن الفرح بالهدية مقصور عليكم ، لا يتعدى الى . فأنا لست بها فرحا ، وهو قصر اضافى • قال الطاهر بن عاشور: « وتقديم المسند اليه على الخبر الفعلى فى « أنتم ••• تفرحون » لافادة القصر »(١٥٤) •

ومنه قوله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم »(١٥٥) قال.

---

(١٥٢) انظر مختصر السعد جـ ١ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ شروح التلخيص.

(١٥٣) النمل ٣٥ ، ٣٦ •

(١٥٤) التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ٢٦٩ •

(١٥٥) التوبة آية ١٠١ •

الزمخشرى فى تفسير قوله « نحن نعلمهم » «لا يعلمهم الا الله»(١٥٦)

فالتقديم هنا لافادة قصر العلم بهم على الله . وظاهر أن القصر هنا من قبيل القصر الاضافى ، اذ قد تعلمهم الملائكة أيضا ، ولكن جاء القصر فى مقابلة نفى العلم بهم عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولعل ذلك قد كان قبل أن يعلمه الله بهم ، أو أن بعض المنافقين لم يعلم الله رسوله بهم .

قلنا ان المسند اذا كان منفيا فان البلاغيين قالوا انه يفيد القصر بمساعدة القرائن ، ويأتى أيضا للتقوية ، ومن افادته القصر قوله تعالى: « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »(١٥٧) ففى قوله : « وأنتم لا تعلمون » قصر عدم العلم على المخاطبين .

أما تقديم المسند على المسند اليه فيفيد القصر بمعونة القرائن والسياق ، تقول : لله الحمد ، أى لا أحمد الا الله ، ومنه قوله تعالى: « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون »(١٥٨) (فالمعنى أن عدم الغول مقصور على الكون فى خمور الجنة ، أو أن الغول مقصور على عدم الحصول فيها ، وهذا على اعتبار النفى فى جانب المسند أو المسند

---

(١٥٦) الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٥ .
(١٥٧) البقرة ٢١٦ .
(١٥٨) الصافات ٤٧ .

اليه)(١٥٩) ومنه قوله تعالى : « لكم دينكم ولى دين »(١٦٠) أى دينكم مقصور على الكون بأنه لكم لا يتجاوزكم الى الكون لى ، ودينى مقصور على الكون بأنه لا يتجاوزنى الى كونه لكم ، فالقصر قصر افراد ومنه قوله تعالى : « ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم »(١٦١) أى أن ايابهم لا يكون الا له ، وان حسابهم لا يكون الا عليه .

ومن تقديم المسند الذى لا يفيد القصر قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله »(١٦٢) فتقديم (فيكم) على (رسول الله) للاهتمام ، لأن الجملة (فيكم رسول الله) خبرية مستعملة لغرض الايقاظ والتحذير ، لأن كون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه ، فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم ، فالتقديم للاهتمام وهو توبيخ للقوم على ما فرط منهم، ورسول الله بينهم ، لذلك قدم الخبر لأنه مناط التوبيخ ومحل الزجر(١٦٣) .

القائم وطريق التقديم :

التقديم — بوجه عام — من أهم أبواب البلاغة ، وأقواها أثرا فى استقامة رصف الأساوب وحسنه ، لذا يستعمل فى المقامات التى

---

(١٥٩) بغية الايضاح جـ ١ ص ٢٠٠ .
(١٦٠) الكافرون ٦ .
(١٦١) الغاشية ٢٥ ، ٢٦ .
(١٦٢) الحجرات ٧ .
(١٦٣) انظر الكشاف جـ ٤ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ والتحرير والتنوير جـ ٣٠ ص ٢٣٩ .

تقتضى التعظيم ، أو زيادة فى المعنى ، أو التنسيق الفنى للكلمات والجمل بالاضافة الى ما تشترك فيه كل طرق القصر من رد خطأ المخاطب ، أو ازالة شكه وتردده ، أو تقرير الحقيقة •

فقوله تعالى : « اياك نعبد واياك نستعين »(١٦٤) نجد فيه مع افادته التخصيص تعظيم الله سبحانه وتعالى الذى هو نتيجة الاهتمام بتقديمه « فان المقصود بتقديم (اياك) تعظيم الله سبحانه وتعالى ، والاهتمام بذكره مع افادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله تعالى »(١٦٥) • ومنه قوله : « تبارك الذى بيده الملك »(١٦٦) وقوله تعالى : « له الملك وله الحمد » •

وفى قوله تعالى : « وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله » تقديم « ما نعتهم »(١٦٧) على «حصونهم» لالاشعار بزيادة وثوقهم بمنعها اياهم • ومنه قوله تعالى : « أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم »(١٦٨) حيث قدم (أراغب) على (أنت) لافادة زيادة الانكار على ابراهيم بالرغبة عنها •

---

(١٦٤) الفاتحة ٥ •

(١٦٥) النوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم الجوزية ص ١٢١ •

(١٦٦) الملك آية ١ •

(١٦٧) الحشر ٢ •

(١٦٨) مريم ٤٦ •

وفى قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة»(١٦٩) تقديم (الى ربهـا) على (ناظرة) لتحقيق التناسـق الفنى للجملة ومنه قوله « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق »(١٧٠) وغيره كثير جدا فى القرآن الكريم .

ثم اقرأ قول الكميت فى مدح بنى هاشم :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب
ولكن الى أهـل الفضـائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب
الى النفـر البيض الذين بحبهـم الى الله فيمـا نالنى اتقـرب
بنى هاشـــم رهط النبى فاننى بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

الشاعر هنا قدم (شوقا) و (بحبهم) و (الى الله) و(بهم) و (لهم) . ومع أن هذا التقديم يحقق له التناسق الفنى ، ويقيمله الوزن الشعرى فانه يعبر عن عاطفة الشاعر الصادقة نحو بنى هاشم ويصور اصراره على حبهم ، ويعزز هذه الصـورة ويمنحها الايحـاء والقـوة .

أما طريقا اضافة ضمير الفصل الى الجملة ، وتعريف المسند فقد وضحنا دلالتهما على القصر عند حديثنا عن طرق القصر ، وذكرنا آراء العلماء فيهما فلا داعى لذكرهما هنا .

---

(١٦٩) القيامة ٢٢ ، ٢٣ .
(١٧٠) القيامة ٢٩ ، ٣٠ .

خاتمـــة :

وبعد فالقصر احدى الخصوصيات التى تعرض الأساليب خبرية كانت أم انشائية ، ويريد به الأديب أن يثبت فى جملة واحدة صـفة لموصوف ، وينفيها عن غيره ، أو يثبتها لموصوف وينفى عنه غيرها ، ففيه ايجاز ولكن ليس بالحذف •

والمقام وحده هو الذى يسيطر عليه فى ذلك ليحدد له أسلوب القصر المناسب ، فاذا جاء الأسلوب فى مقامه فانه يظهر المعنى المراد، ويمنحه الايحاء والقوة •

ففى مقام تقرير الحقيقة يأتى القصر الحقيقى التحقيقى صـفة على موصوف • وفى مقام كمال العناية بالصـفة فى معرض التهديد والوعيد وبيان الحال يأتى قصر الموصوف على الصفة • وفى مقـام كمال العناية بالموصوف فى معرض المدح والذم والفخر وتقرير الحال ودفع الشبهة يأتى قصر الصفة على الموصوف •

وفى المقـامات التى تقتضى قـوة المعنى كالرد على المنـكرين والشاكين ، وتقوية الصفة التى يتعلق بها الحـكم يأتى طريق النفى والاسـتثناء •

وفى مقام التنديد والتعريض ، أو التوضيح والتقرير والايحاء، أو بيان الحال للتفخيم والتعظيم أو التهكم اللاذع يأتى طريق العطف

وفى مقام تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لاعتبـار

مناسب تأتى (انما) لتنزيل المجهول منزلة المعلوم ، أو النفى والاستثناء لتنزيل المعلوم منزلة المنكر المجهول .

وعند الحاجة الى الايجاز . والتناسق الفنى ، أو زيادة المعنى يأتى طريق التقديم .

وعند ارادة المبالغة المقبولة فى معرض يناسبها يأتى القصر الحقيقى الادعائى .

فهل رأيت أسلوبا غير القصر يسع كل هذا ؟ انه شجرة فيها كل الثمار

ونسأل الله الفهم والتوفيق